ملاحق

وهى بحوث منفصلة تدور فى إطار علم الأديان

الملحـــق الأول

الجذور التاريخية لصراع الوجود فى فلسطين

يدور الصراع بين البشر منذ الأزل ، منذ أن قتل ابن آدم أخاه ؛ فهو يمتد عبر التاريخ كله؛ لأنـــه صراع بين الخير والشر ، ولن يزول من المجتمعات الإنسانية ما دام هناك نفوس تسعى لتَمَلُّك ما بيد الغير ، وطموحاتٌ لا تقف أمامها حواجز الشرعية والقانون ، وطبائعُ استولى عليها حب الشهرة والجاه ، وملكت زمامَها نوازعُ الشر وهمزاتُ الشياطين ، وتطلعاتٌ جامحةٌ إلى الثروة والجاه والسلطان ؛ فقد سالت الـــدماء أنهاراً ، وسقط القتلى زرافاتٍ ووحدانا فى ساحة القتال ، ودُمِّرَت منشآتٌ حضاريةٌ بالسلاح الذى ابتكـــره الإنسان ، وتفنن فى تطويره للسيطرة على الغير ، واستلاب ما يملكه من ثروات ومقتنيات ، وفَرْضِ سلطانه على أرضه ، كى يستترف قواه، ويتحكم فى مصادر ثروته حتى تخضعَ إرادتُه لهواه ، فيملكَ مقاديرَ حياتـــه ليستخدمها فى بناء ملكه وسلطانه .

هذا هو التصور العام لكل أنواع الصراعات التى وقعت – وما زالت تقع كل يوم فى جميع أرجـــاء المعمورة – فى المجتمعات الإنسانية عبر الزمان والمكان ، لكن الصراع الاستيطانى هو من أبـــشـــع أنـــواع الصراعات – إن لم يكن أبشعها على الإطلاق – على مدى تاريخ البشرية ؛ لأن هدف المعتدى هو ســـلب وطنٍ بأكمله ، واقتلاعُ إنسان من أرضه التى هى جزء من كيانه وكينونته ؛ فهو – أى الوطن – بمثابة جزء من جسم المعتدى عليه ، فمن يطرده منه فكأنما خلع جذوره التى تمده بالحياة ، وسمم هواءه الذى يستنشقه فينهى حياته بدل أن يمده بالأوكسيجين الذى هو عنصر أساسى لاستمرار الحياة .

فالاستعمار الاستيطانى هو صورة مجسمة للشر ، إن لم يكن هو الشر نفسه . وهل هناك مـــا هـــو أقسى من هدم البيوت على رءوس سكانها ، وشق بطون الحوامل ، وقتل الضعفاء من الشيوخ والأطفـــال ، وتدمير الأخضر واليابس ، وضرب الحصار حول السكان ليموتوا من الجوع والعطش إن لم تفترســـهم آلام الجراح التى تنزف دماً ولا تجد من يداويها ؛ لأن قساوة قلب المعتدى قُدَّت من حجر ، بل هى أقسى مـــن الحجر كما أخبرنا المولى عز وجـــل فى قـــولـــه تعـــالى : ﴿ ثُـمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُـمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ

كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٤]

حقًا ! لا يوجد أقسى مما يرتكبه الصهاينة فى فلسطين ، ولا أبشع من ممارساتهم الوحشية مع أطفال الحجارة ، وكيف لا وهم أحفاد يشوع بن نون الذى أمر جنوده بأن يحرقوا المدينة (أريحا) بمن فيها من الرجال والنساء والأطفال كما جاء فى كتبهم المقدسة .[195] ولم يقتصر الأمر على حرق أريحا ، بل كان هذا شأنهم فى كل مدينة استولوا عليها ؛ إذ عندما استولى جيش يشوع على مدينة (عاى) أطلق اليهودَ على أهلها فذبحوهم جميعاً ، وكان عددهم اثنى عشر ألفاً ، ونهبوا كل ممتلكاتهم وبهائمهم ، ثم أحرقوا المدينة ، فلم يتركوها إلا رماداً ، وأسروا ملكها وقدموه إلى يشوع فشنقه على شجرة وترك جثته معلقة حتى المساء ، ثم أنزلها وطرحها عند مدخل المدينة ... وهكذا فعلو فى كل مدينة استولوا عليها ، فمن لم يُقْتَل صار عبداً لهم وعاملوه معاملة أقل مما تُعامَل بها الدواب والأنعام.

قد يقال : إن هذه المعاملة كانت سمة العصور القديمة ؛ إذ كان المنتصر يتحكم فى أقدار المهزومين ، لكن اليهود عاملوا المهزومين بأقسى مما كان معروفاً فى ذلك العصر فى مثل هذه الحالات، يؤيد ذلك ما يفعلوه اليوم مع الفلسطينيين ، فلم نسمع فى التاريخ الحديث أن مُسْتَعْمِراً قمع ثورة شعب يريد حريته واستقلاله بالدبابات والطائرات والصواريخ [196] ، فمشروعية الثورة تُحَتِّم على المستعمِر أن يكون أكثر حكمة فى مواجهتها ، حتى لا تشذ ممارساته ضدها عما ارتأته الدول المتحضرة ، وصاغته فى قرارات وتوصيات أجمعت عليها الدول فى منظماتها الدولية ، ولكن الصهاينة هم أحفاد يشوع بن نون !!!!

أين وطن اليهود ؟

يدعى اليهود أن أرض فلسطين هى موطن آبائهم وأجدادهم ، وأن من حقهم أن يعودوا إليها ويستردوها بعد ما ضاعت منهم هذه السنين الطوال ، وهذه ادعاءات لا سند لها من التاريخ ؛ إذ تنبئنا المصادر التاريخية والدينية أن آباءهم الأوائل (إبرٰهيم ، وإسحاق ، ويعقوب عليهم السلام) لم يستقروا فى مكان ، فلم يكن لهم موطن ثابت ، بل كانوا يرتحلون من مكان إلى آخر ، شأنهم فى ذلك شأن البدو

---

[195] " ..... وأحرقوا المدينة (أريحا) بالنار مع كل ما بها ..... " [يشوع ، الإصحاح السادس]

[196] قمع السوفيت فى عام ١٩٦٨ ثورة براغ بالدبابات ، ولكنهم لم يستخدموا الصواريخ والطائرات ، ومع ذلك استنكر المجتمع الدولى ذلك الإجراء وعدوه مخالفة صريحة لميثاق الأمم المتحدة فيما يتعلق بحق الشعوب المستعمَرة التى تثور على مستعمريها .

الرحل ، فقد ذكرت المصادر أن أباهم الأول إبراهيم وُلِدَ قبل الميلاد بنحو ألفى عـــام فى مدينـــة " أور " ، إحدى المدن الكلدانية التى كانت تقع فى منطقة ما بين النهرين ، ثم رحل مع ذويه إلى مدينة أخرى تسمى (حاران) ، وكانت تقع على أحد فروع نهر الفرات ، فى بلاد الآراميين ، وبعد أن استقر بها فترة من الـــزمن رحل عنها مع ابن أخيه لوط إلى أرض كنعان المعروفة اليوم بأرض فلسطين . ولما كان إبراهيم قد نزح مـــن أرض الآراميين فقد جاء فى التوراة أنه كان آراميا ، أما الكنعانيون فقد لقبوه – حين وفد إليهم – بالعبرانى ، كما عُرِفَ نسله بالعبرانيين .

فعلام تدل هذه التسميـــة ؟

ورد لفظ " عبرى " فى مواضع كثيرة من التوراة بمعنى **الغريب** أو **الأجنبـى**[197] ، وهناك إشارات إلى أن اللفظ : " **عبـرى** " استخدم على لسان الشعوب التى عاش العبريون بينهم بمعنى غريـــب ، فكـــانوا يطلقون عليهم : **العبريون أو العبرانيـون** " ويقصدون بذلك : " **الغربـاء** " بل إن التوراة نفسها تتحدث عن العبريين بصفتهم غرباء بما قد يعنى أن العبرى هو الأجنبى الذى يعيش بين أهل البلد ، كما كان هو حال اليهود فى الأماكن التى نزلوا فيها .

استقر إبراهيم بعض الوقت فى مدينة " شكيم " المسماة اليوم " نابلس " ، ثم لم يلبث أن رحل مـــن هناك وضرب خيامه فى الجبل القائم بين " عامى " و " بيت إيل " فى الشمال الشرقى من مدينة " شاليم " أى " السلام " ، وهى التى أصبحت بعد ذلك معروفة باسم " أورشليم " أى "مدينة السلام " . ثم غـــادر هذا المكان وراح يتوغل ناحية الجنوب فى أرض كنعان ، متنقلاً من موضع إلى موضع ، شأنه شـــأن البـــدو الذين يتنقلون باحثين عن المراعى الخصبة لمواشيهم ، فلا يستقرون فى مكان ، ولا يملكون أرضًـــا بعينـــها . وحين أجدبت هذه المنطقة رحل إبراهيم مع ذويه إلى مصر ، وكان ذلك على الأرجح فى عهد الهكسوس .

أما إسحاق فحين أجدبت المنطقة التى كان يرعى ماشيته فيها رحل إلى " جرار " بفلسطين واســـتقر هناك مدة حتى طرده " أبيمالك " ملك الفلسطينيين ، فمضى من هناك وأقام فى بئر سبع .ولا يختلف الأمـــر بالنسبة ليعقوب ؛ فقد أقام فى حران ، ثم رحل إلى كنعان ، وأخيراً رحل مع بنيه إلى مصر .

---

[197] التكوين ١٩ : ٨ ، ٤١ : ١٢ , الخروج ١ : ١٩

كان هذا حال آبائهم الأوائل ، لاوطن لهم يستقرون فيه ، ولا أرض يملكونها ، بل كانوا يرحلون من مكان إلى آخر بحثاً عن المراعى لماشيتهم ، الأمر الذى حتم عليهم أن يعيشوا فى أماكن متفرقة بين مصر والشام والعراق .

فأين عاشوا بعد انقضاء عصر الآباء ؟

ظل اليهود خاضعين لحكم المصريين زهاء أربعمائة وثلاثين سنة ، إلى أن خرج بهم موسى عليه السلام إلى سيناء وظلوا يرتحلون فى صحرائها من مكان إلى آخر – تائهين فيها – مدة أربعين سنة ، يقول الله تعالى:

﴿... قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٦]

مات فيها موسى عليه السلام ، وكان قد عيَّن قبل موته تلميذه ، يشوعَ بنَ نون خليفة له فى الزعامة على اليهود وقيادتهم . انحصرت مهمة قيادة يشوع لبنى إسرائيل فى قيادته لهم فى الإغارة على أرض فلسطين واغتصابها من أصحابها الأصليين، ثم تقسيمها بعد ذلك على أسباطهم ، و استخدم اليهود فى سبيل ذلك كل وسائل العنف ، من قتل ، وتشريد وحرق للمدن الذى كانوا يستولون عليها ، واستغرق ذلك سبع سنين استولى فيها اليهود على فلسطين ، ولم يبق منها خارج سيطرتهم سوى مناطق صغيرة ، كان يسكنها أهل الأرض فى غزة ، وأشدود ، وعسقلون ..... [198]

لما شعر يشوع بن نون باقتراب أجله دعا إليه رؤساء اليهود وشيوخهم وأوصاهم بأن يقضوا على البقية الباقية فى الأراضى المجاورة والشعوب التى اغتصبوا بلادها ، وحظر عليهم مهادنة هذه الشعوب أو الاختلاط بها ومصاهرتها أو عبادة آلهتهم قائلاً لهم : " .... وَأَعْطَيْتُكُمْ أَرْضاً لَمْ تَتْعَبُوا عَلَيْهَا ، وَمُدُناً لَمْ تَبْنُوهَا وَتَسْكُنُونَ بِهَا ، وَمِنْ كُرُومٍ وَزَيْتُونٍ لَمْ تَغْرِسُوهَا تَأْكُلُونَ ..... " [يشوع ٢٤ : ١٣ – ١٤]

---

[198]) يرى البعض أن الكنعانيين الذين سكنوا فلسطين جاءوا أثناء الهجرات القديمة من الجزيرة العربية ، فقد كشفت الآثار عن مدن كنعانية تدل على توطن هذا الشعب العربى لفلسطين من قديم الزمان ، تشهد بذلك آثارهم التى اكتشفها الأثريون فى ربوع هذا البلد ، فقد كان لهذا الشعب العربى حضارة قديمة ، ولكن كان عيبهم الرئيسى هو تفككهم السياسى فى شكل حكومات فرعية يحكمها أمراء مستقلون : فلم يستطيعوا ضم هذه الحكومات المتعددة تحت قيادة حاكم واحد وإقامة دولة كنعانية قوية مما سهل على العبرانيين الاستيلاء على جزء كبير من أرضهم ، واحتلالها مدينة بعد أخرى أيام القائد اليهودى يشوع بن نون كما تصف التوراة إلا أنه – مع ذلك – لم يتمكن الإسرائيليون من بسط سلطانهم الكامل بصفة دائمة على كافة الضفة الغربية للأردن ، لأن جزءاً كبيراً ظل فى أيدى الكنعانيين . وظلوا فى صراع دائم معهم نحو مائتى عام . [انظر إسكندر ١٨ – ١٩]

وبعد موت يشوع بن نون عاش اليهود عيش قبائل البدو ، لاتربطهم رابطة أو يجتمع لهم شمل إلا إذا تعرضوا للخطر ، فعندئذ يقيمون لهم زعيماً يتولى قيادتهم ودفع الخطر عنهم . ثم يتولى بعد ذلك رعاية شئونهم والقضاء بينهم ، ولذلك كانوا يسمون ذلك الزعيم قاضياً . وقد ذكرت التوراة أسماء بعض أولئك القضاة مع لمحات من أعمالهم ، وهم : " عثنيئيل " و " أهود " و " شمجر " و " " دبورة " و " أيلون" و " عبدون " و " باراق " و " وجدعون " و " أبيمالك " و " تولع " و " يائير " و " يفتاح " و " أبصان " و " شمشون " و " عالى " وكان آخر القضاة : " صموئيل " . وقد تزعم القضاة اليهود فى فترات متفاوتة على مدى زمن يبلغ طبقاً لما ورد فى التوراة نحو أربعمائة وخمسين سنة ، وكان يحدث أن يجتمع اثنان أو ثلاثة منهم فى وقت واحد .

وبعد عصر القضاة بدأ عصر الملوك ، ولم تكن فلسطين خاضعة كلها لهم ؛ إذ كانت بينهم وبين الفلسطينيين مواجهات عدة سالت فيها دماء من الجانبين أنهاراً ، وتحدى الفلسطينيون اليهود فى مواقع عدة ؛ إذ يذكر التاريخ أن الفلسطينيين جمعوا جيشهم لقتال اليهود فى بقعة غربى بيت لحم ، بين " شوكوه " المسماة اليوم " الشويكة " و " عزيقة " المسماة اليوم " تل زكريا " ، فحشد " شاول " جيشاً من اليهود فى " وادى البطم " المسمى اليوم " وادى السنط " جنوب غربى أورشليم ، ووقف كل من الجيشين على جبل مرتفع يفصل بينهما الوادى ، فخرج رجل من صفوف الفلسطينيين اسمه " جالوت " ، ضخم الجسم طويل القامة ، يلبس خوذة من نحاس ، ودرعاً من نحاس على صدره وفوق كتفيه وحول قدميه ، ويحمل فى يده رمحاً كنول النساج ، له سنان ثقيل من حديد ، وبين يديه رجل يحمل ترسه الضخم . وقد وقف بين صفوف اليهود متحدياً إياهم أن يخرج واحد منهم لينازله فإن قتله اليهودى صار الفلسطينيون جميعاً لليهود عبيداً ، وإن قتل هو اليهودى صار اليهود جميعاً للفلسطينيين عبيداً . فلما سمع اليهود كلامه ارتاعوا وخافوا جداً ، ولم يجرؤ أحد منهم على أن يتقدم لينازل ذلك الجبار . وقد ظل أربعين يوماً يكرر تحديه كل صباح ومساء ، واليهود جبناء محجمون . ثم اتفق أن جاء داود من وراء الغنم التى يرعاها ليطمئن على إخوته الذين كانوا ضمن جيش اليهود ، فسمع ما يقوله " جالوت " فأبدى استعداده لمنازلة ذلك الرجل ، ثم أخذ مقلاعه ووضع فيه حجراً وقذفه على الفلسطينى ، فأصابه فى جبهته ، فانطرح على الأرض وعندئذ ركض داود واستل سيف الفلسطينى وقطع به رأسه .وكانت هذه أول خطوة على طريق تولى داود الملك .

مملكة اليهود

وقعت بين داود وبين شاول مناوشات ومصادمات ، كما حدثت بينه وبين الفلسطينيين معارك فى بريـة فاران شرقى بئر سبع ، وفى أفيق التى تقع مكانها اليوم " رأس العين ، .... وغيرهما فى ربوع فلسطين وكانت الحرب بينهم سجالاً ..... غضب صموئيل من شاول لأنه لم يقتل ولم يهلك جميع ماشية عماليق كما أمره ، وعقاباً له على ذلك قال له : إنه قد خلعه فلم يعد ملكاً على اليهود وأقام داود ملكاً بدلاً منه ..... بعـد مقتل شاول فى المعارك التى دارت بينه وبين الفلسطينيين خلا الجو لداود ، فجا ء إليه فى حبرون نحو ثلاثمائة وستون ألف رجل يمثلون جميع أسباط اليهود ومسحوه ملكاً عليهم ، وكان ذلك فى نحو عام ١٠٤٨ قبـل الميلاد . وكان داود فى نحو الثامنة والثلاثين من عمره ، فاتخذ أورشليم عاصمة له ، واستولى من اليبوسـيين على حصن صهيون الذى كانوا يحتلونه خارج أسوار أورشليم وأقام فى مكانه مدينة سماها مدينة داود .

استقر به الحال فاتجه إلى مظاهر الفخفخة الملكية وكان فى أيام داود نبى اسمه جاد ، وقد جـاء إلى داود وأشار عليه بأن يبنى مذبحاً للرب فى حقل ' أرنان " اليبوسى فوق جبل المريـا شـرقى أورشـليم . فاشترى داود ذلك الحقل بخمسين شاقلاً من الفضة وبنى هناك مذبحا ، وفى موضع هذا المذبح بنى سـليمان هيكل أورشليم .

وحين حضرت الوفاة داود استدعى ابنه سليمان وزوده بوصاياه ، ومنـها أن يتمـسك بـشريعة موسى، وأن يبنى هيكل أورشليم ..... الخ ، ومات داود فى نحو ١٠١٥ قبل الميلاد ، بعد أن ملك أربعـين سنة ، منها سبع سنين على سبط يهوذا فى حبرون ، وثلاث وثلاثون سنة علـى كـل أسـباط اليهـود فى أورشليم. وكان عند موته فى السبعين من عمره ؛ وقد دفنه ابنه سليمان عند أسوار أورشليم .

وملك سليمان من ١٠١٥ حتى ٩٧٥ قبل الميلاد [199] وبعده انقسمت مملكة اليهود إلى مملكـتين ، مملكة يهوذا فى الجنوب (من ٩٣٠ إلى ٥٨٦ ق . م . وكان لها ٢٠ ملكا) ، ومملكـة إسرائيـل فى الشمال (من عام ٩٣٠ إلى ٧٢٢ ق . م . وكان لها ١٩ ملكا) ، ودارت الحروب بينهما تارة وبينـهما وبين الفلسطينيين تارة أخرى حتى عام ٧٢٢ قبل الميلاد حيث قضى الملك "شلمناصر " ملك الأشـوريين

---

[199]) تذكر بعض الروايات أن داود لم يتول ملك بنى إسرائيل إلا سنة ١٠٠٤ قبل الميلاد وظل ملكاً عليها حتى ٩٦٣ ق.م. وسليمان مـن عـام ٩٦٣حتى عام ٩٢٣ ق ز م . وبهذا يكون ملك بنى إسرائيل استمر ٨١ عام على اعتبار أن هذا صحيح ، وهو مخالف لرأى أغلبيةالمؤرخين.

على المملكة الشمالية وسبى اليهود إلى مدينة " نينوى " بشمال العراق . كما احتل الملك البابلى " نبوخذ نصر " القدس عام ٥٩٣ قبل الميلاد ، وقبض على ملكها وكل رجاله ، وسباهم إلى بابل ، واستولى على كل خزائن الهيكل ومقتنياته ثم أحرقه ، فأخذ رئيس الكهنة زكريا بن يهودية ثياب الكهنوت ، وألقى بها فى النار ، وقال : مادام قد احترق الهيكل فلم يعد هناك حاجة إلى كهنة ، ثم ألقى بنفسه فى النار ، وحذا حذوه جميع الكهنة الموجودين .

ومما سبق يتبين أن مُلْكَ اليهود لم يدم إلا نحو ٧٣ سنة ، من عام ١٠٤٨ حتى ٩٧٥ قبل الميلاد ، ولم تكن أرض فلسطين كلها تحت سيطرتهم ، بل إن اليهود أنفسهم كانوا منقسمين على داود فى السنين السبع الأولى من حكمه ؛ إذ لم يجتمعوا على مبايعته إلا بعد سبع سنين من ملكه .

ويقرر جميع المؤرخين أنه بعد السبى البابلى انتهى الوجود اليهودى فى فلسطين نهائياً ، ولم يتمكن اليهود من استعادة كيانهم السياسى ، بل عاشوا مجرد طائفة دينية يرأسها كاهن . [200]

ومما تجدر ملاحظته أن الباحث فى تاريخ الشرق الأوسط يجد أنه على طول ما عاش الإسرائيليون فى فلسطين ، وما خاضوا من حروب مع جيرانهم العرب وغيرهم ، لم نجد لهم ذكراً فى كتب المؤرخين المعاصرين لهم – كبقية الشعوب الأخرى – مما يدل على أن الشعب اليهودى لم يكن سوى شعب قبلى ، حروبه عبارة عن غزوات قبلية ضئيلة ، يمكن أن تكون أشبه بتلك التى كانت تحدث فى الجزيرة العربية فى زمن الجاهلية ، بل إن التوراة نفسها لم تذكر أن اليهود قد سيطرواعلى فلسطين كلها فى يوم من الأيام ، على الرغم من صغر مساحتها . بل إن سليمان فى مجده الذى أضفته عليه الأساطير العبرية الخيالية لم يكن فى

---

200) وكذلك كان حالهم تحت حكم الفرس واليونان ، وأيضا الرومان الذين ألحقوا الخراب والدمار بأورشليم ، كما ألحقوا الخراب والدمار بأكثر من ألف مدينة وقرية أخرى من مدنهم وقراهم ، وقد أبادوا معظمهم فلم يتبق منهم إلا عدد قليل تفرقوا هائمين على وجوههم فى كل أنحاء الأرض ، وظلوا غرباء مشردين مطرودين مكروهين محتقرين من الناس فى كل أرض وفى كل جيل ، فتحققت بذلك نبوءات أنبياء اليهود أنفسهم . ومن ذلك ما تنبأ به أرميا النبى إذ قال : " هاهى ذى أيام تأتى ، يقول الرب : تصير جثث هذا الشعب أكلاً لطيور السماء ولوحوش الأرض ... وأجعل أورشليم رجماً ومأوى بنات آوى ، ومدن يهوذا أجعلها خراباً بلا سكن ... هاأنذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم وأبددهم فى أمم لم يعرفوها هم ولا آباؤهم وأطلق وراءهم السيف حتى أفنيهم ... وأوكل عليهم أربعة أنواع يقول الرب : السيف للقتل ، والكلاب للسحب ، وطيور السماء ووحوش الأرض للأكل والإهلاك ، وأدفعهم للقلق فى ممالك الأرض " [أرميا ٧ : ٣٢ ، ٩ : ١١ و١٥ و١٦ ، ١٢ : ١-٤]

الواقع إلا ملكاً صغيرا يحكم مدينة صغيرة ، وأن ما أضفته الأساطير عليه من مجد وجاه ليس إلا تقديراً نسبياً يقاس بمن حوله من الملوك والأمراء المقبلين فى فلسطين وما حولها ، كما أن هيكله – إذا قيس بأبعاده التى جاءت فى سفر الملوك – لا يعدو أن يكون بحجم كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى فى المدن الأوربية ، على حد تعبير المؤرخ الكبير " ويلز Wells " الذى يضيف بأنه لايقارن بضخامة المعابد البابلية أو المصرية القديمة . وقد أكد العالم الأثرى المشهور " برستد Breasted " أن سليمان الحكيم لم يكن سوى والياً من الولاة الخاضعين للحكم المصرى. [٢٠١]

القـــدس

كانت فى الأصل تسمى " يبوس " لأنها كانت عاصمة اليبوسيين ، ويذهب بعضهم إلى أن الكنعانيين سموها "ساليم" نسبة إلى كنعان مشهور ، وقال " الفيروزآبادى " : " شليم "، و" شاليم " اسم البيت المقدس، ومنه اشتق الأوربيون Jerusalem . وأول من أحاط المدينة بسور هم اليوسيون العرب ، سكان القدس (نحو ٢٥٠٠ ق . م .) . وكان اليهود آنذاك بدواً رُحَّلاً ، يرتحلون من مكان إلى آخر يبحثون عن المراعى الخصبة لمواشيهم ، ابتداءً من شمال العراق حتى مصر . ومن المعروف أن اليهود لم يسكنوا القدس إلا بعد أن استولى عليها الملك داود ، وظل عددهم يتأرجح نتيجة الغزوات التى تعرضت لها المدينة بعد ذلك من الأشوريين ، والبابليين ، والفرس ، والرومان الذين حرموا عليهم دخولها بتاتاً منذ عهد " هدريان " سنة ١٣٥ م ، ثم سمح لهم صلاح الدين بالمعيشة فيها ، مع العلم بأن الصليبيين كانوا قد طردوا جميع اليهود منها . وجدير بالذكر أنه لم يكن بها فى القرن الثانى الميلادى سوى يهودى واحد على قول السائح اليهودى " بتاحيا " الذى زار القدس فى هذا القرن .

المسار التاريخى للقدس

يذكر لنا علماء الآثار أن أول من سكن القدس قبائل بدائية فى العصر الحجرى القديم ، وقد وجدوا جمجمة (موجودة حالياً بمتحف القدس) يطلق عليها : "الإنسان الفلسطينى القديم " . ويذكر المؤرخون أن الكنعانيين بنوا المعابد الضخمة ، والقصور الفخمة فى فلسطين . وقد كشفت الآثار عن مدن كنعانية تدل على حضارة هذا الشعب العربى ، لكن كان عيبهم الرئيسى هو تفككهم السياسى فى شكل حكومات فرعية

---

[201] إسكندر ٣٢

يحكمها أمراء مستقلون ، فلم يستطيعوا ضم هذه الحكومات المتعددة تحت قيادة حاكم واحد وإقامة دولة كنعانية قوية مما سهل على العبرانيين – فيما بعد – الاستيلاء على أجزاء كبيرة من أرضهم ، واحتلالها مدينة بعد أخرى أيام القائد اليهودى يشوع بن نون كما تصفه التوراة ، إلا أنه – مع ذلك – لم يتمكن الإسرائيليون من بسط سلطانهم الكامل بصفة دائمة على كل الضفة الغربية للأردن ، لأن جزءًا كبيراً ظل فى أيدى الكنعانيين ، وظلوا فى صراع دائم معهم نحو مائتى عام .

بناء القدس

هناك أسطورة نقلها بعض الكتاب الغربيين عن " يوسيفوس " ، و " بلوتارك Plutarch " ومصدرها المؤرخ المصرى " مانيتون Manetho " تقول بأن القدس بنيت على يد الهكسوس ، بعد طردهم من مصر على يد تحتمس الثالث سنة ١٤٧٩ ق . م. بعد أن هزمهم فى معركة " مجدو " ، وخضعت له كل فلسطين . وأقام على المدينة المقدسة حاكماً مصرياً ، ولكن يرجح البعض أن اليبوسيين – وهم فرع من سلالة الكنعانيين العرب – هم الذين بنوها تحت قيادة ملكهم المسمى " ملكيصادق " . وكان الفراعنة يحكمون فلسطين عن طريق ولاة من أهلها بشرط أن يدفعوا الجزية ، ولم يكونوا يتعرضون لمعتقداتهم الدينية ، أو عاداتهم المحلية ، ولم يصيبوهم بسوء .

عندما أغار عليها القائد اليهودى " يشوع بن نون " – بعد خروج اليهود من مصر – لم يتمكن من الاستيلاء على القدس ، وظلت المدينة المقدسة تحمل اسم " يبوس Jebus " وبقى حصنها قائماً فى قلب الولايات الإسرائيلية . يقول الكاتب الأمريكى " ستيمسون جورج " أن بنى يهوذا ، وبنى شمعون تمكنوا من حرق المدينة وأسروا بعض اليبوسيين ، لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على الحصن القائم على جبل صهيون . وكان من نتيجة ذلك أن أعاد اليبوسيون بناء المدينة . وبقيت فى أيديهم خلال حكم القضاة وفى عهد شاول الملك .

لم يدخل أحد من الإسرائيليين مدينة القدس حتى سنة ٩٩٧ ق . م .[٢٠٢] حين دخلها داود عليه السلام ، تشهد بذلك أسفارهم ؛ إذ جاء فى سفر القضاة (١٩ : ١١ – ١٢) أن رجلا إسرائيلياً وامرأته وغلامه كانوا مسافرين ذات يوم فأدركهم الليل ، فطلب الغلام من سيده أن يزلوا فى يبوس (القدس) ، ولكن السيد رفض ذلك معللاً بأنه لا يميل إلى مدينة غريبة ، حيث ليس أحد من بنى إسرائيل هناك .... وحتى بعد

---

[202]) طبقا للرواية القائلة بأن مُلْكَ داود بدأ فى ١٠٠٤ حتى ٩٦٣ ق . م .

استيلاء داود عليها كان اليهود الذين سكنوها أقليه بين اليبوسيين ، وظلوا كذلك حتى السبى البابلى سنة ٥٨٦ ق . م.

ومما تجب الإشارة إليه فى هذا المجال أن الملك داود لم يستطع طرد السكان اليبوسيين المتمسكين بأرضهم ، فبقى فى القدس عدد كبير منهم ، حتى أنه فى أيام سليمان استخدم الفلسطينيين فى بناء هيكله وقصره ، طبقاً لرواية العهد القديم . [٢٠٣]

ويقرر جميع المؤرخين أنه بعد السبى البابلى – كما ذكر سابقاً – انتهى الوجود اليهودى فى فلسطين نهائياً (٥٩٣ ق. م.) . ولم يتمكن اليهود من استعادة كيانهم السياسى ، بل عاشوا مجرد طائفة دينية يرأسها كاهن كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

هيكل سليمان

كان الإسرائيليون منذ أيام موسى النبى حتى عهد داود يقيمون شعائرهم الدينية فى خيمة تُفَكّ وتُرَكّب فى أى مكان (خيمة الاجتماع) ، أثناء ترحالهم من سيناء وتسللهم إلى أرض كنعان تدريجياً ، فرأى سليمان الاستعاضة عنها بمعبد يُبْنَى من الحجارة ، فاختار مكاناً على جبل موريا فى جنوب شرق القدس .

جاءت الإشارة إلى نقل ملكية الأرض التى بُنِىَ عليها الهيكل فى سفر صموئيل (٢٤ : ١٨ – ٢٥) وفى سفر أخبار الأيام الأوّل (٢١ : ١٨ – ٣٦) تضاربت روايات اليهود عن كيفية انتقال ملكية المكان الذى بُنِىَ عليه الهيكل وقيمة ثمنه ؛ فزعموا أن هذه البقعة كانت بيدراً لرجل يبوسى يدعى " أرونة " ، وأن داود قد اشترى منه البيدر ليقيم عليه مذبحاً للرب (الهيكل) ، فمن قائل إنه خمسون شاقلاً من الفضة ، وآخر يقول إنه ستمائة ، وإزاء هذا التضارب يتبادرإلى الذهن هذا التساؤل : أليس من الجائز أن يكون الكاتب اليهودى أو الكتاب غير المعروفين الذين كتبوا نصوص شراء الملك داود لبقعة الأقصى بعد السبى فى صموئيل والأخبار كان هدفهم أن تكون تلك المقولة نقطة تجميع لليهود ليرددوا بأن أرض الأقصى هى لهم بحكم ما تعارف عليه جميع الناس وهو البيع والشراء ، لا بحكم ما لم يعترف الناس لهم به من أنهم إلى الأبد هم شعب الله المختار ؟ ، وذلك بعد زوال مملكتهم من الوجود بإسقاط بابل لها وسوقهم أسرى إلى بابل [السبى البابلى ٥٨٦ – ٥٣٦] ثم احتلال الفرس لهم ، ثم اليونان ، ومن أجل هذا جاء التناقض

---

[203]) انظر أخبار الأيام الثانى ٨ : ٧

الصارخ بين النصين فى ثمن الشراء ، إلى جانب تناقض نصى الشراء مع مسلك الإسرائيليين الفعلى فى احتلالهم لما استطاعوا احتلاله من أرض فلسطين بأمر الرب إله إسرائيل ... وفعلاً فإنه مع كل هذه التناقضات فإن اليهود على مر العصور – حتى وقتنا هذا – يتغامزون – بل يصرون – على مقولة شراء الملك داود لأرض المسجد الأقصى ، ... كيف أصبحت البقعة المقدسة التى كانت معبداً لليبوسيين وملكهم العربى " ملكي صادق " " بيدراً " وملكاً لفرد واحد هو " أرونة " اليبوسى الذى ذكرت نصوصهم – ادعاءًا – أن الملك داود اشتراها منه؟ ومتى كان ذلك ؟ وهل تراجع اليبوسيون عن عبادتهم لله الواحد العلى، خالق السماوات والأرض وتنازلوا عن معبدهم فى البقعة المقدس حتى يصبح المعبد بيدرا ؟ ألم يشر رواة التوراة أنفسهم إلى أن إبراهيم عليه السلام قد أتى إلى هذه البقعة المقدسة لكى يقدم ابنه إسحاق عليها ليذبحه هناك ، مع رفضنا لأقوالهم ؛ لأن الذبيح عندنا فى الإسلام – وكما أكدته المصادر الإسلامية – هو إسماعيل ، وفى مكة ، لا فى القدس ، وكذلك ألم يشر رواة التوراة إلى أن " أرونة " اليبوسى كان يعرف ما معنى تقديم الذبح للرب ؟

ومن خلال هذه التساؤلات نخلص إلى النتيجة التالية : إن الإسرائيليين أرادوا نفى قدسية الموقع بالنسبة لليبوسيين ، ولذلك جعلوه بيدراً بدلا من أن يشيروا إليه كمعبد ، لأن المعبد لا يمكن أن يملكه فرد فيباع ويشترى ، إن رواة التوراة أنفسهم يشيرون إلى أن " أرونة " كان يعرف الذبح للرب ، مما يدل على أنه كان يمارسه مع بقية شعبه العربى اليبوسى ، وهذا يؤكد بأن الموقع استمر معبداً لله العلى القدير طيلة عهد اليبوسيين ، ولم يتحول إلى ملكية خاصة لفرد لكى يتصرف به كما يحلو له ، فيقيمه بيدراً أو ما شابه ذلك ، إنه معبد فقط ومسجد لله تعالى .... ولذلك فإن داود عليه السلام قد شرع يعد لإقامة المسجد الأقصى على قواعده السابقة فى الموقع نفسه الذى كان معبداً لليبوسيين ،ومن هنا فإن روايات الإسرائيليين فى توراتهم حول شراء داود عليه السلام للموقع من " أرونة اليبوسى " ، وأنه كان بيدراً ، هى روايات مختلقة أساساً لا صحة لها على الإطلاق . [٢٠٤]

والجدير بالذكر أن العرب هم الذين ساهموا فى بنائه لعدم خبرة اليهود بالفن المعمارى فى هذا الوقت، فكان رسمه على طراز مصرى أشورى ، كما ساهم الفينيقيون العرب في بنائه بخشب الأرز والسرو من لبنان.

---

[204]) أبو علبّان ٧٤ – ٧٦

زعم رواة التوراة أن الهيكل أقيم على جبل موريا ، ولكنهم لم يشيروا إلى تحديد مكانه بالضبط ، جاء فى سفر أخبار الأيام الثانى (٣ : ١) " وبدأ شرع سليمان فى بناء بيت الرب فى أورشليم فى جبل الموريا حيث تراءى لداود أبيه حيث هيأ داود مكاناً فى بيدر " أرنان " اليبوسى " وأشار اليهود فى التلمود إلى أن الهيكل أقيم على بقعة من مسجد الصخرة المشرفة ، وقد علق الدكتور محمد أحمد محمود حسن على ذلك الادعاء بقوله : " ويقال بأن هيكل سليمان كان على بقعة من مسجد الصخرة المشرفة ، ولكن بين ما ذكره التلمود عن الصخرة التى كانت نواة قدس الأقداس – وعليها أقيم هيكل سليمان – وبين الصخرة المشرفة، صخرة المعراج ، – وعليها أقيم مسجد الصخرة المشرفة – تباعد كبير ؛ فقد وصف التلمود صخرة الهيكل بأنها ترتفع عن مستوى سطح الأرض بثلاثة أصابع ، بينما صخرة المعراج – والتى أقيم عليها مسجد الصخرة – ترتفع عن مستوى سطح الأرض بنحو متر كامل كما هو واقع اليوم [٢٠٥] وعليه فإن مكان الهيكل لم يكن ضمن ساحات الحرم الشريف ، ولا ضمن أسوار القدس الشريف . [٢٠٦]

وقد تهدم الهيكل عدة مرات كان آخرها وأشدها سنة ٧٠م ، وبقيت أساساته حتى سنة ١٣٥م حيث أتى عليها الإمبراطور الرومانى " هدريان " تماماً ، وبنى محلها معبداً لـ " جوبتر " ، وبعد ذلك تهدم المعبد الوثنى ، وذكر أحد المؤرخين أنه لم ير منه شيئًا سنة ٣٣٣م . [٢٠٧]

" " "

---

[205]) محمد أحمد محمود : المسجد الأقصى فى الكتب المقدسة ٣٦

[206]) رائف نجم : القدس الشريف ١٤

[207]) إسكندر ٢

الملحق الثانى

حوار الأديان [208]

أصبح الخطاب الثقافى فى عالمنا العربى بوجه عام مُوَجَّها من الخارج ؛ فالغرب يصدر لنا بين الحين والآخر مصطلحات ثقافية ، ومنطلقات فكرية لننشغل بها ، إن تفسيراً وتوجيهاً وتأويلاً ، وإن دفاعاً عن النفس ، وتوسلاً وتوددا بأن مفهوم هذا المصطلح ، أو ذاك ، بعيد عن هويتنا وتعاليمنا ، محاولين – بأسلوب التوسل الذى قد يصل أحياناً إلى المذلة والمسكنة – إقناعهم بأننا لسنا متشددين ، ولا عدوانيين ، ولا متطرفين . وأحياناً يذهب البعض من مفكرينا إلى أقصى حد ممكن ليقنعهم بأننا متحضرون ، حتى ولو أدى الأمر إلى التنصل من مسلمات دينية ، والتبرؤ من أساسيات فى منظومتنا الثقافية ، والابتعاد عن عادات وتقاليد تعتبر ركائز أساسية فى تكويننا الثقافى والدينى .

الأصولية

صدر الغرب لنا بالأمس القريب مصطلح : " الأصولية " – وهو ترجمة لكلمة : Fundamentalism – مشوباً بالتطرف ، وعدم الاعتراف بالآخر ، ورفض كل ما هو جديد ، وإعلان الحرب على الحضارة الحديثة ، مستهدفاً تدميرها ، ومحوها من الوجود ، وأوهمونا بأن مصدر ذلك كله هم المسلمون الذين يجاهدون فى سبيل الله بالأسلحة والمتفجرات لإعادة بناء الدولة الإسلامية بالصورة التى كانت عليها فى صدر الإسلام . شنت الصحافة الغربية حرباً إعلانية على المسلمين متهمة إياهم بأنهم أصوليون يحاربون الحضارة الحديثة ، ويعملون على تدميرها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فتجاوب مثقفونا مع رجع صدى هذه الحملة، محاولين التبرؤ من الأصولية ، وممن يدَّعون بأنهم أصوليون ، وداروا بذلك فى فلك التيار الغربى ؛ فكلما ظهر على ساحة الأحداث مسلم يدافع عن دينه ، اتهموه بالأصولية حتى ظن كثير من الناس أن صفة الأصولية وصمة عار ينبغى على المرء التبرؤ منها ، حتى لا يوضع اسمه فى قائمة المطاردين من " العدالة الدولية " ، مع

---

[208]) هذا البحث نشرمع بحثين آخرين فى كتابنا : " حوار الأديان ودور الدعوة الإسلامية فى مواجهة التحديات " ، رأينا ضمه إلى هذه الملاحق لأن له صلة بموضوع الكتاب وهو الاتصال الفكرى مع ممثلى الأديان الأخرى .

أن الحقيقة التى كان يجب على مثقفينا أن يتنبهوا لها : هى أن كل مسلم يحافظ على دينه ، ويلتزم بتعاليمه هو **أصولى** ، لأنه يتمسك بما جاء فى المرجعيات الأصلية للإسلام ، وهى : القرآن الكريم ، والسنة النبوية . فالمفهوم الغربى للأصولية يختلف عن المفهوم الإسلامى ، لأن الأصولية فى الغرب هى : حركة ظهرت فى أمريكا فى عام ١٩١٨م رداً على من كانوا ينقدون الإنجيل من الليبراليين ورجال الدين المتحررين . وأتباع هذه الحركة من عامة المسيحيين ، فهى رد فعل للهجوم الذى كان موجهاً إلى الإنجيل بقصد التشكيك فى صحته لزعزعة الإيمان به .

فالأصولية فى الإسلام ليست حركة كما كان الحال فى المجتمع المسيحى الأمريكى فى عام ١٩١٨م ، وإنما هى وصف لكل مسلم يتمسك بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، سواء كان ملتزماً بظاهر النص ، أم كان مؤوِّلاً له كى يتلاءم مع ظروف العصر ومتطلباته .

الإرهاب

وبعد أن هدأت موجة الأصولية ، طرحوا أمامنا على الساحة الفكرية مصطلح : " الإرهاب " الذى هو ترجمة لكلمة : " terrorism " متهمين المسلمين بأنهم إرهابيون . فانبرى الخطاب الفكرى فى بلادنا يدافع فى مقالات ، وتحليلات ، وكتب ، مبيناً أن الإسلام ليس دين إرهاب ، وإنما يدعو إلى السلام والأمن ، دون أن يوضح المفكرون أولاً أن ترجمة كلمة : " terrorism " بالإرهاب خطأ ، وربما يؤدى ذلك إلى عكس المطلوب ، حيث توجد مادة هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .....) [الأنفال : ٦٠] ، فإذا وُجِّه الخطاب الفكرى إلى نفى الإرهاب عن الإسلام ، فلن يقتنع غير المسلمين من الأوربيين بذلك ، وخاصة أولئك المهتمين بالبحث العلمى — وعلى وجه الأخص : المهتمين بالدراسات الإسلامية — لأنهم سيجدون هذه الكلمة فى القرآن الكريم . وكان أول واجب يقوم به المفكرون المسلمون هو تصحيح ترجمة كلمة : " terrorism " إلى العربية ، وبيان أنها ليست إرهاباً ، وإنما الترجمة الصحيحة هى : " الرعب " ، والإرهابى هو : " المرعِب " ، أى الذى يثير الرعب فى نفوس المواطنين . أما كلمة إرهاب فى القرآن الكريم فهى تعنى : " الردع " ، أى تخويف الآخر من العواقب الوخيمة إذا هو أقدم على الاعتداء ، وهو مصطلح مقبول دولياً ؛ إذ شاع فى

الخطاب الدولى كلمة : " الردع النووى " ، أى أن امتلاك القوى العظمى للسلاح النووى كان وسيلة لمنع وقوع حرب عالمية ثالثة .

انشغل المساهمون فكرياً بنفى تهمة الإرهاب عنهم ، حتى بدا للمراقب لحركة المساجلة الفكرية بين الغرب والعالم الإسلامى ، أن الإرهاب منحصر فى المسلمين ، وأنهم – أى المسلمين – هم الذين يشيعون الرعب فى أركان الكرة الأرضية ، مع أن الحقيقة أن هذا التيار ليس خاصاً بالمسلمين ، بل هو منتشر فى كل أرجاء المعمورة ، وبين كل الأعراق والأجناس ، وأصحاب الأديان والعقائد المختلفة ، فهو موجود فى جميع قارات الكرة الأرضية ، وفى أوربا بالذات ، حيث ظهرت جماعة " بادر ماينهوف " فى ألمانيا ، و " الألوية الحمراء " فى إيطاليا ، و " الجيش الأحمر " فى أيرلاندا ، هذا فضلاً عن ظهور مثل هذه الجماعات فى أمريكا اللاتينية (فى كولومبيا ، ونيكاراجوا ، وغيرهما) ،وفى آسيا (فى الهند ، وسيريلانكا ، واليابان ، ونيبال ، وغيرها) وهذه الجماعات من غير المسلمين !!!! فلماذا تُلْصَق تهمة الإرهاب بالمسلمين ؟؟؟؟ بل إن الجماعات الإسلامية – بصرف النظر عن موقف الإسلام والمسلمين من عملياتها ضد المدنيين – تناضل من أجل هدف مشروع ، ألا وهو تحرير أرضهم من المستعمر ، وتخليص بلادهم من سيطرة الغاصبين ، أما الجماعات الأخرى فى أوربا وغيرها ، فليس لها هدف واضح مشروع ، اللهم إلا إشاعة الرعب والنهب والسلب لدى كثير منها ، ومحاولة فرض مذهب أو عقيدة معينة على الآخرين ، حتى ولوكانوا إخوانهم فى العقيدة ، كما هو الحال فى المعركة التى دارت سنين طويلة بين البروتستانت وبين الكاثوليك فى أيرلاندا .

وبناءً عليه ينبغى على المسلمين أن يركزوا على هذا الجانب عند حوارهم مع الآخر فى الندوات والمؤتمرات التى تعقد لهذا الغرض ، لتصحيح التصور المغلوط عند هؤلاء الناس عن الإرهاب ومصدره . وهذا هو الأساس الذى ينبغى أن يُبْنَى عليه الحوار معهم ، وهو المنطلق الذى يجمعنا للبحث عن أسباب ما يسمونه الإرهاب الإسلامى ، ومحاولة إزالتها حتى نقضى عليه ، وإلا فلن تكون اللقاءات والحوارات سوى شقشقات لفظية ، وجعل لغوية لا مفهوم لها ، وجعجعة لا طائل من ورائها ، اللهم إذا كان غرضهم – وهذا ماتؤكده الأحداث – تبديد طاقات المسلمين فى هذا الحوار الفارغ ، حتى لا يكون لدى المسلمين من الوقت ما يبذلونه فى حل قضاياهم الداخلية ، واسترداد ما سلبه الآخرون منهم ، وبذلك يظلون يدورون فى إطار هذه الأحداث الذى رسمه لهم هؤلاء ، فيتخلفون عن ركب الحضارة الحديثة .

وهناك الكثير من المصطلحات التى يرددها الغرب عن الإسلام ، سواء كان ذلك عن جهل بتعاليم الإسلام ، أو سوء نية وقصد ، ولذا يجب على المسلمين أن يصححوا للغرب هذه المفاهيم بكل الوسائل ، ومن أهم هذه الوسائل :

الحوار

فالحوار فى حد ذاته مطلب حيوى ، وضرورة قصوى ، لتصحيح هذه المفاهيم التى يتهم الغرب الإسلام – والمسلمين – بها، من قبيل : أنه الدين الذى يدعو إلى القتل والاغتيال تحت شعار " الجهاد "، وأنه الدين الذى يرفض معتنقوه التعايش مع " الآخر " ، فالمسلم فى ساحة التعامل مع الآخر إما قاتل أو مقتول ، وأن المسلمين – وخاصة العرب – شعوب متخلفة ، لايدركون للتقدم معنى ، ولا يعرفون أسس الحضارة فى السلوك والقيم ؛ لأنهم مرتبطون بالإسلام ، ذلك الدين القائم على الهمجية فى التفكير والسلوك ، ومعاداة التقدم العلمى فى أى مجال ، فهو دين الجمود والارتباط بالماضى ، والاستهانة بالحاضر ، وتجاهل المستقبل .

كل هذا يحتاج من المسلمين إلى بذل الجهد لتصحيح هذه المفاهيم ، ولعرض التعاليم الإسلامية الصحيحة فى ثوبها الأبيض الناصع ، بعيداً عن تشنجات المتشددين ، وشطحات المتطرفين ، وسلوكيات الجاهلين . ولكن قبل أن نخوض فيما يجب أن يكون عليه الحوار مع " الآخر " ، وبرسم موضوعاته ، ونوضح أهدافه ، يجب أن نركز أولاً على الحوار مع " النفس " ، ونقصد به الحوار مع رموز التيارات والمذاهب الإسلامية داخل المجتمعات الإسلامية ، حتى يمكننا أن نرتب البيت من الداخل قبل الحديث مع " الآخر " ؛ ذلك أننا نواجه دائماً فى لقاءات عديدة بسؤال يكاد يكون بألفاظ واحدة ، ألا وهو : عن أى إسلام تتحدثون ؟ عن الإسلام الشيعى أم السنى ؟ عن التيار السلفى ، أم عن تيار المجددين ؟ عن مفهوم طالبان أم عن تصور تنظيم القاعدة ، وجبهة الإنقاذ الجزائرى وجماعة التكفير والهجرة وأمثالها ؟ عن المتمسكين بظاهر النصوص المنكفئين على الماضى ، أم عن " العقلانيين " المتهمين من السلفيين بالزندقة ؛ لأنهم يحاولون التوفيق بين النصوص المقدسة ومعطيات العصر ، ومتطلبات الحضارة الحديثة ؟

ومما لاشك فيه أن تصحيح هذه المفاهيم الذى علقت بذهن " الآخر " نتيجة التمزق والتفرق فى ساحة الفكر الإسلامى ، يأخذ وقتاً طويلاً ، وجهداً خارقاً ، الأمر الذى يحتم علينا أن نتحاور مع بعضنا أولاً، كى نرسم خريطة الحوار مع " الآخر " ، حتى ولولم نصل من هذا إلا إلى تحديد أهداف الحوار

مع " الآخر ". فتحسين الصورة الإسلامية بقدر الإمكان على الساحة الدولية أمر مهم ، خاصة وأننا نملك الأسس التى يمكن أن نتفق عليها ، ألا وهى : القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، إذ يمكننا أن نختار الآيات التى ترسم لنا الأسلوب والمنهج الذى نتفق عليه ، مسترشدين بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦]

منهج الحوار مع النفس

بين السنة والشيعة

تحتم الأحداث الدولية على المسلمين أن يتحدوا ، ويقفوا صفاً واحداً ، السنى بجانب الشيعى ، ناسين خلافاتهم ، متجاوزين تباين آرائهم فى بعض المسائل التى لا تمس الاعتراف بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولا ، وبالقرآن الكريم – وحى الله – دستوراً ، فالاختلاف فى التفسير والتأويل وقبول بعض الأحاديث ورفض البعض الآخر يمكن التجاوز عنه ، وهو لا يفسد للود قضية ، فى هذه الظروف ، خاصة وأن الصراع الدولى يوجب عليهم الوقوف صفاً واحداً ، وإلا أُكلوا واحداً بعد الآخر ، ويومئذ ينطبق عليهم المثل الشعبى القائل : " أُكِلْتُ يوم أن أُكِلَ الثور الأبيض " .

ينبغى أن ندرس التاريخ دراسة جيدة ، فنتعلم وندرك أن من الأسباب الرئيسية لضياع الأندلس ، هو اختلاف المسلمين وتناحرهم ، وتحالف بعضهم مع العدو ضد إخوانهم المسلمين ، مما فتت قواهم ، فأصبحوا لقمة سائغة ، التهمها العدو ، الواحد تلو الآخر ، حتى استؤصلت شأفتهم من الأندلس . لانريد أن تتكرر هذه المأساة ، ولا يحب أحد من السلمين أن يرى هذا المشهد مرة أخرى ، ولذلك يجب أن يتحاور السنيون مع الشيعة ، ليصلو إلى تكوين جبهة صلبة ، تتمكن من مقاومة هذا الزحف الجارف على ديار الإسلام ، الذى لن يبقى – لا قدر الله – على سنى ، ولا على شيعى ، فلنبدأ الحوار السنى الشيعى اليوم قبل غدٍ ، على أن تشتمل أجندته على النقاط التالية :

١. إحياء لجنة التقارب بين المذاهب التى دعا إليها فى منتصف القرن العشرين : الشيخ محمود شلتوت ، وآية الله القمى ، بحيث يكون نشاطها :

- إبرازَ مسائل الاتفاق فى الفقه والتفسير والحديث ، فى صورة كتب وأبحاث تُنْشَر بين أنصار الطائفتين لخلق وعى عام بضرورة الوقوف جبهة واحدة أمام الأخطار الخارجية .
- داعياً إلى نسيان الماضى بما فيه من أحقاد وكراهية بين التيارين .
- مركزاً على وجوب التعاون والوحدة بين الفريقين ، كى يستطيعوا مواجهة الهجمات الشرسة التى يتعرضون لها من مختلف القوى العالمية .

٢. عقد اتفاقات ثقافية بين الجامعات الإسلامية فى المجتمعات الشيعية ونظيراتها فى المجتمعات السنية ، لتبادل المنح الطلابية ، حتى يتخرج جيل يعرف كلٌ ماعند الآخر من تفسيرات وتأويلات للنصوص الدينية ، وكذلك لتبادل زيارات الأساتذة والباحثين لخلق جو علمى أكاديمى بين الفريقين ، بعيداً عن المزايدات المذهبية ، والانفعالات الوجدانية .

٣. عقد ندوات ومؤتمرات للحوار بين الجانبين ، يركز فيها على التواصل والتعاون ، ويعلن فيها أن كلاً يعترف بالآخر ، ويحترم رأيه ، حتى يكون دافعاً لأصحاب القرار على اتخاذ ما يلزم للتقارب والتعاون على المستويات : الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، كى يظهر المسلمون أمام العالم بأنهم جبهة واحدة ، وأنهم يتعاملون مع بعضهم بأسلوب حضارى ، دعا إليه الإسلام ، وإن اختلفت وجهات نظرهم فى تفسير وتأويل النصوص المقدسة . ومما لاشك فيه أنه ، إن حدث هذا ، ستكون له آثار بعيدة المدى فى مجال الحوار الدينى مع غير المسلمين على المستوى الإقليمى والدولى .

٤. تدريس المذاهب الإسلامية – الفقهية ، والكلامية ، والفلسفية وغيرها – بشعبتيها – السنى والشيعى – فى كل الجامعات الإسلامية .

حوار بين التيارات والجماعات الإسلامية

ويتضمن :

لقاءات بين رموز هذه التيارات والجماعات ، تحت إشراف الأزهر – بصفته الجامعة التى تعبر عن جميع المذاهب الإسلامية ، لأنها تُدَرِّسُها دون تفرقة بينها – للنظر فيما يجب عمله فى نشر الدعوة ، بحيث يركز على :

- نبذ الخلافات ، والعنف ، والتطرف .
- رسم منهج عام يلتزم الجميع به لخدمة الإسلام فى الداخل والخارج .
- الاتفاق على الخطوط العريضة التالية :

أ. احترام الآراء المخالفة .

ب. عدم تكفير الآخر ، إلا إذا أنكر نصاً من نصوص القرآن الكريم ، أو ما علم من الدين بالضرورة . ولا يحكم بهذا التكفير إلا الجهات الدينية الرسمية ، بعد البحث والتدقيق ، ويكون الرأى فى ذلك بإجماع الآراء ، عملاً بقول رسول الله ﷺ : " إدرؤوا الحدود **بالشبهات** "[209] ، فمعارضة رأى واحد من العلماء يعتبر شبهة ، مع العلم بأن جواز إقامة حد الردة مختلف فيه بين العلماء .

جـ. توحيد الآراء فى المسائل العامة ، والقضايا الدولية ، ويكون اتفاق الأغلبية على الفتاوى مُلْزِماً للجميع ، يلتزمون به فى فتاواهم للعامة ، وتصريحاتهم لوسائل الإعلام . أما فى قاعات البحث ومدرجات التدريس فيجوز عرض جميع الآراء للطلبة ، وإن خالفت ماارتأته الأغلبية للإفتاء به ، لأن التعليم والتعلم ينبغى أن يتناول كل الآراء على الساحة الفكرية .

د. احترام الرموز والمؤسسات الإسلامية رغم اختلاف الرأى معهم .

---

[209] نصب الراية : الحافظ الزيلعى / تخريج أحاديث الهداية ٢٢٣/٣ ــ تلخيص الحبير ٥٦/١ رقم ١٧٥٥ ، ونسبه إلى الترمذى ، والحاكم ، والبيهقى من طريق الزهرى

الحوار مع العلمانيين

تدور معارك فى كثير من الأقطار الإسلامية بين العلمانيين وبين رموز الفكر الإسلامى حول الأخذ بمبدأ الديمقراطية الغربية ، إذ يرى العلمانيون أن هذا النظام هو النموذج المثالى لحكم الشعوب فى العصر الحديث ، ذلك أنه يتيح لكل فرد فرصة اختيار نوابه عن طريق تعدد الاتجاهات ، وتنوع البرامج الحزبية ، فهو مخير بين عدة خيارات ، يختار منها ما يلائم حياته ، وما يحقق مصلحته ، وما يتفق مع نظرته للحياة ، وموقفه من الوجود كله ، فإذا مافاز اتجاه برأى الأغلبية ، فعلى الجميع أن يسلموا بأحقيته فى تسيير دفة الحكم ، مع إعطاء الاتجاه المعارض حق مناقشة القوانين واللوائح التى يتقدم الحاكمون بها إلى المجلس المنتخب لإقرارها كأساس لتطبيق النظام فى المجتمع ، وبهذا لا ينفرد شخص بتقرير مصير أمة ، ولا يكون لمجموعة ، أو هيئة ، أو حزب حق الاستيلاء على السلطة ، بدون تفويض من الشعب ، كما لا يجوز للسلطة التنفيذية اتخاذ أى إجراء يتعلق بمصالح الناس ، إلا إذا أجازه من اختارهم الشعب ليمثلوه فى توجيه أمور الدولة . فالتوازن بين السلطة التشريعة والسلطة التنفيذية يحفظ نظام الدولة من التداعى والانهيار ، والاعتراف بحق نواب الشعب فى مساءلة رجال الإدارة والحكم فيما يمارسونه ، بحكم وضعهم الوظيفى ، يحمى المواطنين من قسوة الحكام وظلمهم ، ويحافظ على مصالحهم ، ويؤمن حياتهم ، ويرسى قواعد الاستقرار فى الأمة .

بينما يرى بعض رجال الدين أن هذا من النظم التى أقرتها العلمانية ، وما دامت العلمانية لا تعترف بوجود الدين – كما هو الحال فى العلمانية المتطرفة – أو لا ترى بأساً من وجوده – كما هو الحال فى العلمانية المعتدلة – ، غاية الأمر أنه ينحصر فى ظلها فى مجال العبادات ، فليس له سلطان على التشريعات واللوائح التى تضبط مسيرة الحياة ، وإنما مركز التشريع ومصدره ، هو البرلمان لمنتخب من الشعب ولا مصدر غيره ، فلا يجوز لشعب مسلم أن يقر هذا النظام كنموذج له فى الحكم ، لأن المشرع هو الله ، وليس البرلمان . ثم يتطرق المتطرفون من رجال الدين إلى مظاهر هذا النظام المتعددة فيحرمونها كلها ، إذ يرون أن نظام الأحزاب ليس إسلامياً لأنه يفرق الأمة شيعاً وأحزاباً ، ولذلك فهو غير جائز ، كما أن تسمية البرلمان بالهيئة التشريعية حرام ، لأن المشرع هو الله .

ربط العلمانيون – على أساس علمى تاريخى – هذا الموقف بما كان عليه الحال فى أوربا إبان العصور الوسطى ؛ إذ تصوروا وضع السلطة البابوية آنذاك ، يوم أن كان البابا والمطارنة والقسس يُحلُّون مايشاءون ، ويُحَرِّمون مايشاءون ، ويُدْخِلون الجنة مَنْ يريدون ، ويقذفون فى النار من يكرهون ، وتراءت

فى أذهانهم صور صكوك الغفران والحرمان ، حيث قاسى منها الحكام والأمراء الكثير من المتاعب والآلام ، بل إن الشعوب نفسها اكتوت بنارها ، وذاقت جحيم أوارها وسعيرها ، فتصوروا – أى العلمانيون – أن تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجال الحكم والإدارة سيخلق مثل هذا الوضع فى المجتمع الإسلامى ، حيث يتحكم رجال الدين فى كل شيء دون أن يكون لأحد حق الاعتراض أو المناقشة ، لأنهم محصنون بسياج قدسى ، لا يجرؤ أحد على تخطيه ، اللهم إلا من خلع رداء الإيمان .

فأى مسلم يستطيع أن يضع نفسه فى هذا الموقف ؟ ..... لا أحد .

وتكون النتيجة القضاء على كل صوت معارض ، فتترعرع الديكتاتورية الدينية ، وتضيع حقوق الناس بين فكيها ، وتهدر كرامة الإنسان تحت أقدامها ، كما حدث فى القرون الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تبسط سلطانها على جميع مجالات الحياة .

إن هذه الصورة لاوجود لها فى الإسلام على الإطلاق ؛ إذ لا يُعْرَف فى تعاليمه هذا المصطلح المسيحى : رجل دين ، وغير رجل دين ، لأن الكل فى ظل الإسلام مسلمون ، لافرق فى الحقوق والواجبات بين رجل وآخر ، وليس فى الإسلام عصمة لأحد من الخطأ ، كما هو الحال فى المسيحية بالنسبة للبابا ، فكل مسلم خطَّاء ، وما دام الأمر كذلك فلكل أحد الحق فى المعارضة ، لأنه لا يوجد رأى لايجوز معارضته ، وبهذا تنتفى شبهة العلمانيين فى إمكان قيام ديكتاتورية دينية ، إذ مادام الإسلام قد أعطى كل مسلم الحق فى المعارضة ، فلن تقوم فى ظله ديكتاتورية .

أما بالنسبة لما يراه بعض رجال الدين من تحريم النظام البرلمانى ، لأنه يدعى لنفسه حق التشريع ، بينما المشرع هو الله ، فلا ينبغى أن يفهم وضع البرلمان على هذا النحو ، ذلك أن تعاليم الإسلام ومبادئه العامة . لايجوز المساس بها ، فهى بمثابة الدستور الذى لايجوز للبرلمان أن يوافق على تشريع قانون يتعارض مع مبادئه . فالتشريع يدور فى أمور فرعية تندرج تحت ظل مبادئ الدستور العامة ، فإذا أردنا أن نبين طبيعة عمل البرلمان فى ظل تطبيق الشريعة الإسلامية ، فإننا نرى أنها لا تخرج عن إقرار تفسير لنصوص القرآن الكريم دون آخر ، وما أكثر آراء العلماء فى التفسير والتأويل ، فنصوص القرآن الكريم لا يجوز الخروج عليها صراحة ، كما هو الوضع بالنسبة لعدم الخروج عن الدستور ، وإنما يجوز لأعضاء البرلمان إقرار قانون يتفق مع رأى عالم ، ورفض رأى عالم آخر ، وبهذا يكون دور البرلمان هو الاختيار والانتقاء من آراء العلماء بما يناسب طبيعة الحياة وظروف العصر .

يجب أن يتحاور رجال الدين مع العلمانيين ، كى يزيلوا ماعلق فى أذهانهم من تصورات غير صحيحة عن علاقة الإسلام بمعطيات العصر ، كما وضح من العرض السابق ، وحتى لا يقتنع الشباب بآرائهم ، فيعتقدون أن بين الإسلام وبين الحضارة الحديثة خصومة لا يمكن تجنبها ، أو أن مبادئ الإسلام لا تساير العصر . وينبغى أن يقوم حوار أيضاً فى هذا الصدد مع من يسمون أنفسهم – أو يسميهم غيرهم – بـ " الإسلاميون الثوريون " أو بـ " الإسلام اليسارى " ، لأن فى بعض تصوراتهم جنوحاً عن المبادئ العامة للإسلام ؛ فهم يفسرون بعض آيات القرآن الكريم بما يبعدها عن روح الإسلام وتعليمه ، وعما استقر عليه المسلمون من أحكام لاتتغير بتغير الزمان والمكان ، ويتزلون إسقاطات على بعض الأحداث فى صدر الإسلام بما يشوه تاريخ الرموز الإسلامية ، ولذا وجب الحوار معهم حتى لا يتصيد أعداء الإسلام من آرائهم ما يخدم دعوتهم لمناهضة الإسلام .

الحوار مع الآخر

الحوار مع الآخر ظاهرة إنسانية ، فهو ملازم للفكر والثقافة ، أياً كان نوع هذه الثقافة ودرجة رقيها، فهو وسيلة اتصال الإنسان مع أخيه الإنسان منذ الحياة البدائية حتى عصر ما بعد الحداثة ، فحيثما اجتمع اثنان فى مكان ما ، إلا وكان الحديث بينهما أول خيط يربطهما ، حاملاً تبادل المعلومات والأخبار ، أو موجهاً الاتهامات والتهديدات إن كان اللقاء لتصفية الحسابات أو لغرض سيطرة أحدهما على الآخر وسلب مامعه من أملاك ومتاع . كذلك الحال حينما ارتقى الإنسان ، وظهرت التيارات الفكرية المختلفة ، والمذاهب العقدية المتباينة ، كان الحوار أحد أهم أسباب النزاع الفكرى ، ورغبة كلٍّ فى غلبة فكره وعقيدته على الآخر ، إذ يحرص كل صاحب فكر أن ينشره بين الناس ، فيلتقى بهم ويشرح لهم أفكاره ، ويحاول إقناعهم بما لديه من مسلمات ، وهم بالتالى – إذا كان لديهم فكر مختلف – يحاورونه ، الحجة بالحجة ، والرأى بالرأى .

ولم تخرج رسالات الأنبياء عن هذه الظاهرة ، فلقد حاور الأنبياء والرسل أقوامهم ، حين عرضوا عليهم رسالاتهم ، وشرحوا لهم مبادئها ، طالبين منهم الإيمان بها محذرين من عاقبة عنادهم وكفرهم ، وقد سجل القرآن الكريم أساليب عدة من هذه الحوارات التى دارت بين الرسل وأقوامهم ، فعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى عن حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١ - ٥٦]

وحوار نوح مع قومه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .....﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾.[هود : ٢٥- ٣٥]

وغير ذلك من الآيات المتعددة التي تبين المواقف المختلفة التي حاور فيها الرسل والأنبياء أقوامهم حول القضايا العقدية ، والمبادئ التربوية ، والمشكلات الاجتماعية التي جاء فيها وحي الله بتعاليم ومبادئ إلهية داعياً البشر إلى اعتناقها واتباعها في جميع مجالات حياتهم ، لتستقيم حياتهم ، ولينالوا رضا الله وعفوه ، فيثيبهم على إيمانهم وعملهم .

أهمية الحوار مع الآخر في الإسلام

لم يرد وجوب الحوار مع الآخر في أي دين من الأديان كما ورد في الإسلام ، وكذلك لم يهتم أي مذهب من المذاهب الفكرية بالحوار مع الآخر اهتمام الإسلام به ؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ بالحوار مع أهل الكتاب ، مما جعل الحوار الديني مبدأ أساسيا في منهج الدعوة إلى الإسلام ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ

الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . ﴾ [آل عمران : ٦٤]

وبهذا كان الحوار مع الآخر فريضة من فرائض الإسلام ، التزم به النبى ﷺ ، فأجرى حوارات مع الوفود التى وفدت عليه فى المدينة ، والتى بلغت أكثر من ثلاثين وفداً فى عام واحد . سمى عام الوفود ، وكان من أشهر تلك الوفود ، وفد نصارى نجران ، الذى قدم المدينة بقيادة أسقفهم أبى الحارث ، فتحاور معهم النبى ﷺ . ومما يدل على سماحة الإسلام وتعامله مع الآخر بأسلوب حضارى فى ذلك العصر – الذى لم يعرف المتخاصمون فيه إلا السيف لغةً للحوار – أنه ﷺ سمح لأعضاء الوفد أن يقيموا صلاتهم فى أحد أركان مسجده ﷺ ؛ وتلك لفتة لم يُعْرَف مثلها فى تلك العصور ، ونادراً – بل يكاد يكون من المستحيل – أن يحدث مثلها فى هذا العصر – فى القرن الواحد والعشرين – الذى يفخر أبناؤه بأنهم قطعوا شأواً كبيراً فى الحضارة ؛ مما جعلهم يتعاملون مع الآخر بأسلوب مهذب وراقٍ .

ومن المبادئ الإسلامية التى تدعو المسلم إلى التعايش مع الآخر والحوار معه واحترام رأيه :

الحرية ، فقد قدسها الإسلام ، ودعا إلى كفالتها ، ولو أدى ذلك إلى عدم الاعتراف به ديناً يقول الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾. [البقرة : ٢٥٦]

ويقول : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾. [الكهف : ٢٩]

ويقول : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾. [يونس : ٩٩]

فالله يبين لرسوله ﷺ فى هذه الآيات أن الإيمان متروك لحرية الإنسان ، فلا ينبغى أن يمارس أحد الإكراه لحمل الناس عليه ، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الإيمان ، ولكنه تركهم بحريتهم ليكون الإيمان نابعاً من ذات الشخص نفسه حتى يثمر إيمانه ، لأن العمل لا يكون نافعاً إلا إذا فعله الإنسان : وهو فى كامل حريته .

ولهذا نظر الإسلام إلى المجتمع نظرة شمولية ، فهو لا يفرق بين الناس على أساس معتقداتهم ، بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات ، بل يكفل لهم أسس العيش فى سلام واطمئنان داخل المجتمع الإنسانى ، وأعطاهم حرية كاملة فى ممارسة بناء المجتمع ، فلا زال قول عمر بن الخطاب ﷺ : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " ناقوساً يرن فى آذان كل المجتمعات البشرية ، معلناً أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية كما أمرهم الإسلام ، واستنكروا كل ما من شأنه أن يسلبها من المجتمع ، لأنها أساس كيان الإنسانية ، ودعامة استقرار المجتمع على قواعد ثابتة ، لا تتزعزع أمام عواصف الدهر وتقلبات الأيام . ومما يدل على سماحة الإسلام مع الآخر ، أن الرسول ﷺ عقد مع نصارى نجران عهداً مع بقائهم فى أماكنهم ، وإقامتهم فى ديارهم ، دون أن يكون معهم أحد من المسلمين ، وقد تضمن هذا العهد حمايتهم ، والحفاظ على حرياتهم الشخصية والدينية ، وإقامة العدل بينهم ، والانتصاف من الظالم . وقام الخلفاء من بعده على تنفيذه حتى عهد هارون الرشيد ، فأراد أن ينقضه ، فمنعه محمد بن الحسن ، صاحب الإمام أبى حنيفة . وفى هذا دلالة واضحة على روح التسامح فى معاملة غير المسلمين ، إذ حافظ على حرياتهم فى العبادة ، وفى إقامة شعائرهم الدينية من غير تضييق عليهم ، ولا تعكير صفو الجو الروحى لطقوسهم الدينية، لأنه احترمها ، واتخذ من الإجراءات ما يحمى قداستها .

- **تقبله للثقافات والحضارات الأخرى** ، مما يدل على أن فكرة الصراع الحضارى لا وجود لها فى مبادئه وتعاليمه ، ويوضح نظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس الأخرى ، ولهذا أقام حضارة كبرى أسهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فى الفكر، والفلسفة ، والأدب ، والفن ، والطب ، واللغة ، والتصوف ، وكانت تلك الحضارة تأليفاً وتوحيداً لكل الحضارات قبلها فى : الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

شيد المسلمون على كل هذه الأسس بناءً حضارياً ضخماً ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ، ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدراً للحضارة الحديثة ، وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : " إن المسلمين لم يحرصوا فقط على أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك ."

فالإسلام دين يحث أتباعه على الاتصال بثقافة الآخر والأخذ منها اتباعاً ، لقول رسول الله ﷺ : " الكلمة (الحكمة) ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها "[210] ، فهو لم يغرس فى نفوس المسلمين حقداً ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق ديناً آخر ، ولم يحرم عليهم التزود بأى نوع من الثقافات الإنسانية ، ولم يفرض عليهم شيئاً يعزلهم عن غيرهم من أجناس لبشرية ، ولم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام ، فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، ووادياً أمن فيه الناس على أنفسهم ، وعقائدهم ، وأفكارهم ، واطمأنوا على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا إليه غير حائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جو من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه ديناً عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمناً مطمئناً ، يسعى إلى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان ، من حيث هو إنسان ، لأنه عبد الله الذى أنزل هذا الدين على محمد ﷺ .

اتبع المسلون هدى رسول الله ﷺ فى هذا المجال فحاوروا أهل الأديان بالتى هى أحسن ، وتعايشوا معهم على أساس الأخوة الإنسانية ، فلم يجبروهم عى اعتناق الإسلام ، ولم يضطهدوهم لمجرد أنهم يخالفونهم فى العقيدة ، بل رفعوا عنهم ظلم إخوانهم فى العقيدة واضطهادهم لهم ، فقد حدث أن عمرو بن العاص حين فتح مصر ، كان البطريرك المسيحى بنيامين مختفياً ، لأن وطأة استبداد البيزنطيين المسيحيين فى البلاد كانت عنيفة ، وطبقاً لنص تاريخ البطاركة لما عرف عمرو بذلك كتب إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه : الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله . فليحضر آمناً مطمئناً ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته . فلما سمع بنيامين هذا عاد إلى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشرة سنة . منها عشر سنين لهرقل الرومى ، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الاسكندرية .[211] ، ثم التقى عمرو بنيامين " فلما رآه (عمرو) أكرمه . وقال لأصحابه : إن فى جميع الكور التى ملكناها إلى الآن ما رأيت رجلاً يشبه هذا . وكان الأب بنيامين حسن المنظر جداً ، جيد الكلام بسكون ووقار . ثم التفت عمرو إليه وقال له : جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم ".[212]

---

[210] الترمذى ٥/٥١ رقم ٢٦٨٧ ، تهذيب التهذيب ١/١٢١

[211] وليم سليم : الحوار بين الأديان صـ ١٠٨ ، نقلا عن ساويرس ابن المقفع : تاريخ بطاركة الاسكندرية . طبعة افنس – الجزء الثانى .

[212] المصدر السابق صـ ١٠٩ . ويقول المؤرخ القبطى الأسقف يوحنا النقيوسى : " احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملاً يعاب عليه . فحيا أهل البلاد عيد السلام الدينى ، وإعادة نشاط الكنيسة الوطنية ، وأديرة وادى النطرون ودير أنبا مقار ، وجاء الرهبان أفواجاً يؤكدون إخلاصهم للقائد العربى " حسين فوزى : سندباد مصرى صـ ١٦٤ .

لقد أرسى الإسلام قاعدة صلبة فى مجال التعامل مع الآخر ، باختياره أسلوب الحوار ، كى يوضح الفكر البشرى ويبين مدى صلته بالتراث الإلهى ، ولا يكون ذلك إلا باحترام الحرية فى التعبير ، وسماع ماعند الآخر ، وعرض مبادئ وتعاليم الإسلام عليه دون إكراه ، بل بالتفاهم والأدلة العقلية – وبالتعبير الإسلامى : " بالحكمة .... وبالمجادلة بالتى هى أحسن – ؛ إذ لا يمكن للشعوب أن تتقدم إلا بتبادل المعلومات ، ومناقشة القضايا : قضايا السلم والعدل ، وغيرهما من المشكلات التى يواجهها الإنسان فى مسيرة بنائه الحضارى ، والتعاون فيما بين الشعوب على أساس احترام الآخر ، ومعرفة ماعنده من مبادئ وقيم .

ضرورة الحوار مع الآخر فى العصر الحديث

أصبح الحوار مع الآخر ضرورة فى عالم اليوم ؛ لأن المجتمعات المعاصرة ضمت العديد من الأفكار والعقائد والمذاهب الفكرية ، بل إن المجتمع الواحد المحدود ، قد يضم أكثر من عقيدة ، ويعتنق أفراده أكثر من مذهب فى جميع المجالات : سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ...و...و...الخ ، ولذا كان الحوار فى حد ذاته مطلب حيوى وضرورة قصوى ، وعلى الأخص :حوار الأديان ، لأن الدين لازال يلعب دوراً كبيراً فى حياة الشعوب ، إذ يرسم للفرد أسلوب حياته ، ويحدد له طبيعة العلاقة مع الآخر ، وبالتالى فهو عنصر أساسى فى استقرار المجتمعات ، ورسم حدود العلاقات بين الشعوب ، حتى فى المجتمعات التى أعلنت أن العلمانية هى أسلوبها فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فقد رأينا أن نزعة التعصب الدينى ، والتبشير بقيام صراع بين الحضارات على أساس ثقافى ودينى صدرت من مجتمع يعتبر نفسه زعيم العلمانية فى العصر الحاضر ، إذ أعلن صمويل هنتنجتون – وهو أمريكى نشأ على الثقافة العلمانية – فى كتابه " صدام الحضارات " أن الصراع فى العالم الجديد لن يكون أيديولوجياً ، أو اقتصادياً ، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر ، والمصدر الغالب للصراع ثقافياً ، ودينياً :

– مركزاً فى كثير من صفحات كتابه على أن الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية واقع لامحالة ، فهو – أى الإسلام – الخطر الماثل أمام أعين الغرب " المتحضر " ، يبدو ذلك واضحاً

من قول أحد المراقبين حسب زعمه : " الكابوس الخاص للأوربيين هو الذكرى التاريخية (إغارة المسلمين فى أوربا الغربية ، والأتراك على أبواب فيينا) ".[213]

- ومبيناً لهم ما يحدث فى تركيا ، حيث يقول : " بالنسبة لتركيا – كما هو لدول أخرى كثيرة – أثار انتهاء الحرب الباردة بالإضافة إلى الخلل الناتج عن النمو الاقتصادى والاجتماعى قضايا أساسية عن " الهوية القومية والانتماء العرقى " ، وكان الدين هناك نيقدم الإجابة ، وأصبح الميراث العلمانى الأتاتوركى والنخبة التركية لثلثى قرن ، تحت النيران وبشكل متزايد . تجربة الأتراك فى الخارج أدت إلى إثارة عواطف الإسلاميين فى الداخل . الأتراك العائدون من ألمانيا الغربية " كان رد فعلهم على العداء هنا هو العودة إلى ما هو مألوف ، وأن ذلك هو الإسلام "[214]

بل إنه يؤكد فى مواضع عدة من الكتاب على أن الصراع بين الحضارتين : الإسلامية والغربية ، مستمر : هناك خصومة بين القيم العلمانية والقيم الإسلامية ، وهناك خصومة تاريخية بين الإسلام والمسيحية، وهناك شعور بالغيرة من 'لقوة الغربية ، وهناك استياء من السيطرة الغربية الناجمة عن بنية الشرق الأوسط السياسية بعد زوال الاستعمار ، وعندهم – أى المسلمين – شعور بالمرارة والامتهان نتيجة المقارنة البغيضة بين إنجاز الحضارتين : الإسلامية والغربية فى القرنين الأخيرين " طالما أن الإسلام يظل (وسيظل) كما هو ، والغرب يظل (وهذ غير مؤكد) كما هو الغرب ، فإن الصراع الأساسى بين الحضارتين الكبيرتين وأساليب كل منهما فى الحياة سوف يستمر فى تحديد علاقتهما فى المستقبل ، كما حددها على مدى الأربعة عشر قرناً السابقة ..... إن حرباً مجتمعية باردة مع الإسلام سوف تساعد على تقوية الهوية الأوربية بشكل عام ، فى وقت حاسم بالنسبة للوحدة الأوربية . ومن هنا قد يكون هناك مجتمع فى الغرب مستعد ، ليس لدعم حرب مجتمعية باردة فقط مع الإسلام ، بل ولتبنى سياسات تشجع عليها. فى سنة ١٩٩٠م قام " برنارد لويس " ، وهو مفكر غربى بارز مهتم بالإسلام ، بتحليل " جذور الغضب الإسلامى " واستنتج قوله : " يجب أن يكون واضحاً الآن أننا نواجه حالة وحركة تتخطى بكثير مستوى القضايا والسياسات والحكومات التى تتابعها ، وهذا ليس أقل من صدام حضارات والذى ربما كان غير منطقى ، ولكنه بالتأكيد رد فعل تاريخى لتنافس قديم ضد تراثنا اليهودى المسيحى وحاضرنا العلمانى ، وانتشار كل

---

[213] صدام الحضارات صـ ٢٣٨

[214] المصدر السابق صـ ٢٤٠

منهما على مستوى العالم ، ومن المهم جداً أننا من جانبنا لا يجب أن نستثار إلى رد فعل تاريخى ولا منطقى معادل ضد ذلك المنافس ".[215]

كان من الطبيعى بعد ظهور هذه الفكرة ، صراع الحضارات على الساحة الثقافية العالمية أن يتصدى المفكرون من المسلمين لهذا الطرح غير السليم – منطقياً ، وفكريا ً وتاريخياً –، موضحين أن تعاليم الإسلام تدعو إلى الحوار لا إلى الصدام ، ويبدو ذلك واضحاً من آيات القرآن الكريم ومن أحداث التاريخ الإسلامى، كما ذكرنا ذلك سابقاً ، فالإسلام يحث المسلم على الاعتراف بالآخر والحوار معه ، لكى يعيش الإنسان آمناً على دينه ، مطمئناً على حياته ، واثقاً من صدق المشاعر بينه وبين أخيه الإنسان ، وإن اختلف معه فى الدين والعقيدة ، وبهذا احتل الحديث عن هذا الحوار وضرورة التعاون على المستوى الإقليمى والدولى مساحة كبيرة فى دوائر الفكر الإسلامى ، بكل أنواعه : من الكلمة المكتوبة إلى الصوت المسموع ، إلى الصورة المرئية ، منددا باتهام المسلمين بأنهم أعداء الحضارة الحديثة ، معلناً استعداد المسلمين للحوار على جميع المستويات ، وفى كل المجالات التى تتعلق بحياة الإنسان وسلامته ، وباستقرار المجتمعات وأمنها .

بدأ الحوار مع الآخر ، فعقدت العشرات من الندوات والمؤتمرات فى أماكن شتى فى أرجاء المعمورة ، دون أن يعرف أحد من المسلمين المتحاورين ماهية الموضوعات التى يقوم عليها الحوار ، ولاطبيعة الأهداف التى يريدون الوصول إليها . لقد عقدت حتى الآن أكثر من أربعين جولة من الحوار الإسلامى – المسيحى فى عواصم متعددة اتخذت شكل مؤتمرات ، وندوات ، وحلقات دراسية ، ولقاءات مشتركة ، وألقيت فيها بحوث حول السلام والتعايش السلمى ، والأخوة الإنسانية ، كما تبودلت كلمات تنضح بالعطف والمودة والرحمة الإنسانية ، وتحددت فى بعضها – وهو قليل جداً – بعض الموضوعات التى تتصل بالتعايش السلمى – وغالباً ماكان الجانب المسيحى هو الذى يختارها – ولكن لم يصل المشاركون فيها إلى نتائج ملموسة ، يمكن تنفيذها أو رؤيتها على أرض الواقع ، فهى – غالباً – لا تعدو أن تكون اجتماعات للكلام وتبادل التحيات الرسمية .

ولهذا ينبغى أن يحدد أسلوب الحوار ، ومنهجه ، وقضاياه ، والأهداف التى يريد المتحاورون الوصول إليها . أما **أسلوب الحوار** فينبغى أن يكون على النحو التالى :

---

[215] المصدر السابق ص ٣٤٣ – ٣٤٤

١. لايكون الحوار متكافئاً إلا إذا كان بين قوتين متعادلتين يعترف كلٌ منهما بالآخر ، إذ يحدث التصارع عندما تجعل إحدى الثقافات من نفسها الثقافة العظمى ، بينما كل الثقافات الأخرى ثقافات صغرى : ويظن أصحابها أن ثقافتهم أعلى وأعظم من الثقافات الأخرى ، الثقافات الصغرى . نحن نعيش فى القرن الواحد والعشرين ، حيث تواجه البشرية نظاماً عالمياً جديداً ، فهل يوجد فى هذا النظام أرضية مشتركة ، يقوم عليها الحوار بين الحضارات والثقافات المختلفة ؟ وكيف تبدو هذه الأرضية المشتركة فى عالم يريد أن يعيد نظام الهيمنة القديم فى ثوب جديد ، تحت شعارات مختلفة ؟ إن الحوار لن يكون مثمراً فى هذا الجو إلا إذا تحقق شرط أساسى ، ألا وهو الاعتراف المتبادل بالتقاليد المميزة للحضارة الإنسانية ، قد يكون هذا أمراً صعباً على أولئك الذين يتارسون الهيمنة على العالم ، وليس عندهم الاستعداد للتنازل بأنهم الأقوى ، والأكثر تفوقاً فى مجال التكنولوجيا ، ولكنه شرط بالغ الأهمية ، إذا كان الطرفان صادقى النية فى الوصول إلى صيغة مشتركة للتعايش السلمى . إن تحقيق السلام فى العالم يتوقف على تحقيق السلام بين الأديان ، ولن يتحقق السلام بين الأديان إلا بإجراء حوار بين هذه الأديان ، ومن شروط نجاح أى حوار على أى مستوى أن يكون كل من طرفى الحوار نداً للآخر ، وهذا يعنى ضرورة تحقيق المساواة التامة بينهما فى كل ما يتعلق بالحوار المراد إجراؤه بين الطرفين .

٢. عدم المساس بالعقائد فى جلسات الحوار ، وهذا لا يعنى ترك أو إهمال الدراسات العقدية فى المدرجات الجامعية ، وفى حلقات النقاش الأكاديمية ، فذلك مرفوض رفضاً باتاً ، لأن الأديان بالنسبة لأصحابها حقائق مطلقة ، لايجوز تعديلها ، أو التنازل عنها ، فالانتقاص من الإيمان ، ولو قيد شعرة أو أكثر ، يخل به ، ويفقده حقيقته ، وبالتالى لا يكون إيماناً . فهل عند الغربيين استعداد للتنازل عن بعض عقائدهم المسيحية ؟ لا أظن ذلك ، بل العكس هو الصحيح ؛ إذهم ينتظرون من المسلمين أن يتنازلوا عن بعض مسلماتهم ، كما حدث فى إحدى ندوات الحوار التى عقدت بالقاهرة ؛ إذ اعترض المسيحيون المشاركون فى الندوة على تركيز المسلمين على موضوع القدس ، وهو من المقدسات الإسلامية ، كما أنكر بعضهم وصف الإسلام بالربانية ، وأصروا على موقفهم إزاء الإسلام ، من ناحية أن محمداً

ليس نبياً ، ولا كتابه كتاباً إلهياً .[٢١٦] ولهذا يجب على المتحاورين أن ينحوا مسائل العقيدة جانباً ، ويركزوا فقط على المسائل الأخلاقية المشتركة لينطلقوا منها إلى منهاج للتعايش السلمى . وليس الهدف من الحوار الوصول إلى موقف وسط بين العقائد ، أى الوصول إلى توفيق تلفيقى ، يقوم على اتخاذ موقف نسبى عام ، بل أساس اللقاء التفاهم ، ومعرفة كلٍّ ما عند الآخر ، وتصحيح للمعلومات غير الصحيحة عند كل طرف عن الطرف الآخر . ثم إن الحوار يكشف لصاحب الدين أو العقيدة – من خلال دين الآخر ، أو عقيدته ، أو ممارسته لها – مفاهيم جديدة ، وأساليب للممارسة تضيق المسافة بين المبدأ والتطبيق ، تساعده على الاقتراب من مثله الأعلى ... ففى الحوار نكتشف التكامل : العطاء والأخذ ، الإثراء المتبادل . حينئذ يصير من الممكن الاعتراف بأن الآخر مصدر للإلهام وللقوة ، وينتفى التعالى الذى يستند إلى شعور بالكمال والاكتفاء الذاتى . بل يكتشف كل واحد أنه يحتاج إلى الآخر .... مع الاحتفاظ بهويته . فينظر الواحد إلى الآخر على أن كل واحد لديه شيء يتعلمه من الآخر ويستفيد به ، وأن لدى كل واحد أيضاً شيء يقدمه ، فتنحل عقدة التفوق التى تعطل تبادل الفكر والتفاهم .[٢١٧]

٣. الاعتراف المتبادل ، فكما أن المسلم يعترف بوجود عقائد أخرى ويسميها ديناً ، وإن لم يؤمن بها لاعتقاده أنها باطلة ، فكذلك يجب على من يتحاور مع المسلمين الاعتراف بالإسلام ديناً ، فإذا تعذر ذلك ، فلا أقل من احترام تعاليم الإسلام وقيمه ، كما تحتم قواعد الحضارة الحديثة على الإنسان المتحضر أن يحترم تقاليد وعادات الآخر ، وإن كانت فى رأيه لا تتفق مع المنطق والعقل . فإذا تعذر ذلك على بعض المتشددين ، فلا مانع من إجراء حوار لمنع المواجهة المسلحة بينهم وبين المسلمين ، ولإرساء قواعد ومبادئ للتعايش السلمى بين الناس جميعاً ، بشرط أن تكون لغة الحوار مؤدبة ، وأن يلتزم المتحاورون بالموضوعية ، بعيداً عن المهاترات والألفاظ التى تجرح شعور الأطراف المتحاورة.

---

[216] علماء الإسلام يردون على هجوم الجانب المسيحى بندوة الحوار صـ ١ على شبكة ليلة القدر .

[217] وليم سليم : حوار الأديان صـ ١٧٣ – ١٧٤

٤. احترام كل طرف من أطراف الحوار ثقافة الآخر وعقيدته ، يقول الله تعالى : " يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . . . . " [الحجرات : ١٣] فالاتصال الثقافى يجب أن يقوم على أساس تبادل المعلومات والخبرات ، لابقصد هيمنة ثقافة على أخرى ، أو فرض تقاليد شعب على آخر ؛ فلا يجوز لطرف أن يملى على الطرف الآخر ما يجب عليه عمله فى مجال الثقافة ، أو فى مناهج التعليم فى مراحله المختلفة ، أو فى توجيه لرأى العام ، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة : المقروءة ، والمسموعة ، والمرئية ، فإن ذلك كله من خصوصيات كل أمة ، فلا يخضع لتوجيهات خارجية ، أو إملاءات أجنبية . فإن احتاجت إلى تطوير لمواكبة العصر ، أو تعديل لتلافى عجز فيها ، فينبغى أن يكون ذلك نابعاً من شعور داخلى ، ليأخذ طريقه فى إطار الهوية ، بحيث لا يخرج عن التعاليم الدينية ، ولا يبعد عن القيم والمبادئ الأخلاقية ، ولا ينحرف عن العادات والتقاليد المرتبطة بالتاريخ والروح الإسلامية . ومن هنا يجب أن يرفض رفضاً باتاً كل إشارة أو تلميح إلى وجوب حذف آيات قرآنية بعينها من المناهج التعليمية ، أو إهمال أحداث تاريخية تدين مجموعة بشرية معينة ، لأن ذلك — لو حدث — يتنافى مع أهم شرط من شروط الحوار الإيجابى ، ألا وهو عدم تدخل أى طرف فى الشئون الخاصة التى تتعلق بهوية الطرف الآخر وثقافته وعقيدته .

٥. الاعتراف بالأصل الواحد للخليقة كلها ، كما قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . . . ﴾ [النساء . ١] ، فلا يتعالى جنس على آخر ، ولا يُفَضَّل شعب بسبب اللون ، أو الجنس ، أو العقيدة ، أو بسبب قدراته العسكرية ، أو الاقتصادية ، أو العلمية والثقافية .

أما منهج الحوار فيجب أن يكون على النحو التالى :

١. نسيان الماضى بما فيه من صراعات وأحداث مؤلمة ، قد تفجر – لو لم تنس – النفور بين المتحاورين ، وتلقى بظلال قاتمة على جوّ الحوار ، فتحفز كل طرف ضد الآخر ، ملقياً بالشكوك فى كل ما يطرح من قضايا ومشكلات على مائدة الحوار .

٢. حرية العقيدة ، يقول تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . . . ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، فلا يجوز لأحد أن يفرض عقيدته على الآخرين بالقوة ، بل يُتْرَك الأمر للناس ، يعتنقون ما يرونه صحيحاً ، دون ضغط أو إكراه .

٣. اتباع المنهج العقلى فى طرح القضايا والمشكلات ، وسبل حلها ؛ لأن العقل هو القاسم المشترك بين الناس جميعاً ، على اختلاف مللهم ونحلهم ، فهو أقرب المناهج لالتقاء الناس ؛ مختلفى العقائد والملل ، وهو أقصر الطرق للوصول إلى رسم منهج مشترك للتعايش السلمى.

٤. عقد ندوتين سنوياً ، يفصل بينهما أربعة أشهر ، تُخَصَّص للإعداد الجيد ، وذلك باختيار موضوع واحد ، يُستَكْتَب فيه علماء ومفكرون على مستوى عالٍ جداً ، ثم تناقش أوراقهم فى الندوة ، بحيث تخرج المناقشة فى صورة ورقة واحدة ، تجمع ما فى الأوراق كلها من أفكارومبادئ . ثم يُعْقَد مؤتمر تناقش فيه الورقتين اللتين أعدتهما الندوتان ، ولا يعقد هذا المؤتمر إلا بعد مرور أربعة أشهر على عقد الندوة الثانية ، يكون العمل فيها مُرَكَّزا على استخلاص ما فى الورقتين فى ورقة واحدة ، تُعْرَض على المؤتمر ، ثم يخرج منه بيان بالمبادئ التى اتفق عليها المؤتمرون . وإن لم يحدث ذلك كانت لقاءات الحوار الدينى بلا هوية تعرف بها ولا طابع يميزها ، ولا نتيجة من ورائها تجنى الشعوب ثمرتها .

٥. يُكَوَّن جهاز إدارى تكون مهمته العمل بكل الوسائل على تفعيل ما صدر عن المؤتمر من مبادئ وتوجيهات على كل المستويات الإقليمية والدولية ، ولو اقتضى الأمر رفعها إلى المنظمات الدولية لإصدار قرارات مُلْزِمَة بتنفيذ هذه المبادئ ، فيجب القيام بذلك ، وإلا أصبحت جلسات الحوار الدينى عبارة عن اجتماعات شكلية ، وتوصيات ونتائج لا تتعدى كونها كلمات سُطِّرَت على ورق ، وبالتالى تصبح لقاءات فاشلة ، لا فائدة فيها ، اللهم إلا تعطيل مصالح المسلمين ، وتضييع الوقت فى مباريات كلامية ، وخطب جوفاء لا مدلول لها .

موضوعات الحوار

لاشك أن موضوعات الحوار لدينى ، التى يجب وضعها على مائدة البحث كثيرة كثرة تجعل من المستحيل حصرها ، لأنها تتعلق بحياة الأفراد ، وحياة التعوب . وعلى الرغم من كثرة عناصرها الماثلة أمامنا، فهى أيضاً متجددة ، ومتطورة ، وخاصة فى العصر الحديث ، عصر التكنولوجيا ، وعصر ما بعد الحداثة ، الذى يُخْرِج لنا كل يوم من الأطروحات وما يتبعها من مشاكل ما يدفع أجهزة الرصد إلى العمل بأقصى سرعة لملاحقتها وتقييمها . ولكن هذا لا يمنع من تناول أهم ما فيها ، وأكثر إلحاحاً لضبطه وتصويبه، لتستقيم العلاقة بين الشعوب على أساس سليم ، يسعد الأفراد ، ويساعد على ازدهار الأمم وتقدم المجتمعات .

ومن اللافت للنظر أن بعض القضايا قديم قدم قيام المجتمعات الإنسانية ، على الرغم من تطوير مفهومها ، وتنوع مضامينها بتطور الحياة الإنسانية ، وأخري أفرزها التقدم الحضارى والاكتشافات العلمية . ويجب على المتحاورين أن يقدموا – فى قائمة موضوعاتهم – الأهم على المهم ، حتى يسهموا فى الإسراع بمحاولة حل المشاكل التى تتعلق بحياة الناس ، أفراداً وجماعات .

ومن أهم الموضوعات التى يجب بحثها :

- **قضايا الإنسان** : فقد كرمه الله – كما أخبرت بذلك كل الكتب المقدسة – ، وركزت على تكريمه معظم – إن لم يكن كل – الاتجاهات الفكرية فى كل العصور والأزمان ، لذا يجب أن توجه الدعوة إلى بحث ما يجب عمله لحفظ حياته ، أياً كان لونه ، أوعقيدته ، أوجنسه ، فلا ينبغى أن يستعلى إنسان على أخيه ، أو يظلمه باغتصاب حق من حقوقه المشروعة : حفظ النفس ، والدين ، والعقل ، والنسل ، والمال . كذلك لاينبغى أن يهان ، أو يذل من ثقافة أخرى على أى مستوى : ثقافى أو إقتصادى ، أو سياسى ، أو اجتماعى ، وعليه فيجب أن يكون موضوع حقوق الإنسان أول ما يوضع على مائدة الحوار الدينى ، من حيث **حرية العقيدة** ، يقول الله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، فلا يجوز لأحدأن يفرض عقيدته على الآخر بالقوة ، بل يُتْرَك الأمر للناس ، يعتنقون ما يرونه صحيحاً ، دون ضغط من أى نوع. والعدل ،

يقول تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. [المائدة : ٨] ، ومن مقتضيات العدل حق كل شعب فى أن يعيش فى وطنه دون اعتداء عليه من أى نوع ، أو محاولة للسيطرة علي مقاليد أموره . **وحرية التعبير** لأن التقييد فى هذا المجال يزيد الأمور غموضاً، فلا يعرف مايكنه البعض للآخر ، وبذلك تنمو الدسائس والفتن. **والمساواة** ، فلا فضل لأحد على آخر ، وذلك يقتضى الاعتراف بحق كل شعب فى الموارد الطبيعية ، بحيث تُقَسَّم بالتساوى على كل شعوب الكرة الأرضية ، فلا استغلال ، ولا احتكار ، وإنما تعاون بين الناس على تنمية الموارد ، وتوزيعها على الشعوب ، بحيث ينال كلٌّ ما يضمن له حياة كريمة ، تليق بالإنسان الذى كرمه الله . هذه هى القواعد الأساسية فى مجال حقوق الإنسان ، ويجب على أطراف الحوار الاعتراف بها ، وإعلان هذا الاعتراف على الملأ ، ثم يبدأ الحوار بين الأطراف للوصول إلى صياغتها فى مبادئ عامة ، يلتزم الجميع بتطبيقها بكل الوسائل، حتى وإن اقتضى الأمر إنشاء تحالف دولى لفرضها بالقوة على من يرفضها .

- **حقوق المرأة :** من الطبيعى أن تتمتع المرأة بكل ما يتمتع به الرجل ، من الناحية الإنسانية ، فكل مايتوصل إليه الحوار الدينى فى بحث موضوع " حقوق الإنسان " ، يسرى على المرأة ، ثم تنفرد ببحث آخر ، ليرفع عنها ما يلحقها من ظلم باعتبارها أنثى ، وذلك من حيث حقوقها كزوجة ، ابتداءً من حقها فى اختيار شريك حياتها ، إلى ممارستها فى إدارة شئون الأسرة ، وتربية أولادها ، وحقها كمواطنة ، لها ما للرجل من : تعليم ، وعمل ، ومشاركة فى شئون الأمة : الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية .... وغير ذلك من الأمور التى يمارسها الرجل ، ما دام ذلك فى استطاعتها .

- **البيئة :** قد يبدو للبعض أن هذا الموضوع بعيد كل البعد عن موضوعات الحوار الدينى ، لأن مفرداته من نظافة وتشجير وأمثالهما لا تدخل فى نطاق الموضوعات المثيرة للجدل ، والتى تحتاج إلى اتفاق بين ممثلى السلطة الروحية ، ولكن هذا الفهم غير صحيح ، فلم تعد المشاكل البيئية قاصرة على هذا التصور ، بل امتد نطاقها ، فأصبحت مسألة دولية تحتاج إلى تضافر كل القوى ، بما فيها المؤسسات الدينية ، ذلك أن البيئة مهددة بالمنتوجات البيولوجية ، من أسلحة

ومتفجرات، وعلى رأسها الأسلحة النووية ، التى أصبحت أكبر هـاجس للإنـسان ، تقـض مضاجعه ، وتهدد وجوده ، فهو فى قلق دائم ، وخوف مستمر من آثار هذه المخترعات ، لا من حيث توقعه لاندلاع حرب نووية فقط ، بل من تسرب هذه الإشعاعات النووية ، كما حدث فى تشرنوبيل قبل عدة سنوات ، ومن انتشار إشعاعاتها بأى طريق آخر ، حيث تدمر الكائنات الحية المحيطة به، بما فيها من الطعام والشراب الذى ينقل إليه الأمراض والعلل لتى لا تبقى ولا تـذر . ولهذا يجب بحث هذا النموذج فى لقاءات الحوار الدينى ، واتخاذ قرارات وفتاوى دينية لتحـريم هذه الصناعة ، ومناشدة كل الدول ، بلا استثناء ، حتى الدول العظمى بالتخلص مـن هـذه الصناعة كلية ، وتدمير كل مالديها من قنابل ومتفجرات نووية ، ومناقشة السبل التى يمكـن أن تتخذها كل المؤسسات الدينية لتخليص العالم من هذا الكابوس الذى يجثم على صدور النـاس ، حتى يشعر الإنسان بالأمن والسلام ، فتهدأ نفسه ليتفرغ للإبداع فى المجالات التى تساعده على التطور الحضارى ، وتعيش كافة الشعوب فى أمن واطمئنان .

- **توزيع الثروات** : لاشك أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض ، وأودع فيها ثروات متعـددة ، ليستخدمها الإنسان فى حياته ، وعليه فلا يجوز لشعب أن يحتكر هذه الثـروات ويحـرم منـها الآخرين ، كما هو واقع اليوم فى عالمنا المعاصر ، إذ يستأثر ٢٠% مـن سـكان الأرض بـ ٨٠% من هذه الثروات . وهذا ظلم يجب رفعه عن المحرومين من التمتـع بثـروات الكـرة الأرضية . وعليه فيجب على المؤسسات الدينية بحث هذا الموضوع فى لقاءات الحوار الـدينى ، للوصول إلى قواعد تعطى كل ذى حق حقه ، فلا ظلم ، ولا احتكـار ، ولا اسـتغلال ، بـل تعاون ، وتضافر للجهود ، حتى يكون هناك توازن بين الشعوب فى الانتفاع بهذه الثروات ، كُلٌّ حسب طاقته ، ولا يُحْرَم منها من لم تؤهله طاقته وعمله بل يأخذ ما يكفيه فى حياته ، حتى ولـو اقتضى الأمر إنشاء صندوق لمساعدة الشعوب الضعيفة – وكذلك الأفراد – ليعيـشوا عيـشة إنسانية كريمة .

هذه نماذج فقط من القضايا التى يجب أن تطرح على مائدة الحوار الدينى ؛ إذ مما لاشك فيه أن هناك العديد من القضايا والمشكلات التى يجب بحثها ، فعلى المكلفين بالتحضير لهذه الندوات والمـؤتمرات حـصر قضايا العصر التى تحتاج إلى بحث ، ووضعها فى قائمة حسب أهميتها بالنسبة لحيـاة الأفـراد ، وضـرورتها لاستقرار المجتمعات الإنسانية وأمنها

أهداف الحوار الدينى

للحوار الدينى أهداف متعددة ومتنوعة على جميع الأصعدة : فردية وجماعية ، إقليمية ودولية ، ثقافية وفكرية ، ومن أهم هذه الأهداف : **معرفة الآخر** ، إذ يعرض كلٌّ ما عنده أمام الآخر ، سواء كان ذلك يتعلق بحياة الإنسان فرداً أوجماعة ، أو باستقرار حياة الشعوب وأمنها . يعرف المرء رأى الآخر فى العدل والمساواة والتكافل ، ومدى استعداده للمشاركة فى وقف العدوان على الشعوب ، والإسهام فى العمل العام لحماية الإنسان من الضياع والهلاك تحت عجلة القوى الاقتصادية عابرة القارات ، وفى مواجهة الأسلحة الفتاكة التى تُسْقط كل يوم – بل كل ساعة – العشرات – بل المئات – من القتلى والجرحى ممن لاذنب لهم ولا جريمة ارتكبوها ، اللهم إلا الرغبة فى فرض الهيمنة والسيطرة من المتشددين والمتطرفين من الجماعات غير الشرعية ، أو من جانب عصابات إقليمية ، أو من جانب قوى دولية عظمى .

إن مجرد الجلوس على مائدة الحوار الدينى بنية صادقة من الطرفين فى التعايش السلمى ، ينزع فتيل الاختلاف من المتخاصمين ، ويمهد الطريق لبدء حقبة جديدة يتعاهد فيها الطرفان على العمل سوياً لرفع الظلم عن المظلومين ؛ ومساعدة الضعفاء على حماية أنفسهم وأموالهم وأوطانهم ، والوقوف جبهة واحدة أمام كل من يعتدى – أو يفكر فى الاعتداء – على غيره ، أو يستبيح حرمات الآخر ، سواء على مستوى الأفراد أو الشعوب .

إن صدام الحضارات فكرة شيطانية ، يراد بها نشر العداوة والبغضاء بين الشعوب ، مما يعطى قوى العدوان ذريعة للسيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها ، ولذا يجب أن يركز الحوار الدينى على التعايش السلمى بين الأمم ، وإن اختلفت عقائدها ، وتنوعت ثقافاتها ، وتعددت اتجاهاتها الفكرية ؛ إذ لم يكن – ولن يكون – صدام بين الحضارات ، بل تنافس شريف ، يتمثل فى تبادل الأفكار والرؤى على جميع المستويات ، فما كان صالحاً للأفراد والمجتمعات ، بقى واستمر ، وثبتت أقدامه ، وما كان طالحاً ذهب واندثر ، يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ . [الرعد : ١٧]

* * *

الملحق الثالث

تدريس علم الأديان فى الجامعة

يدور نقاش حاد فى جامعتنا الإسلامية حول مادة علم الأديان ؛ إذ يرى فريق : أن الجامعة بمفهومها الاصطلاحى ، ينبغى أن تهيئ الفرصة لأبناء المجتمع لدراسة جميع فروع المعرفة ، سواء كان أساس هذه المعرفة وحياً سماوياً ، أو من إنتاج العقل البشرى ، ثم تستخلص منها ما يعود على المجتمع بالخير ، داخل إطار العقيدة والتقاليد الدينية ، وتركز عليه لتبنى الفرد الصالح للنهوض بالأمة ، وإن لم تقم الجامعة بهذا الواجب ، أصبحت اسماً على غير مسمى ، وصار الادعاء بأنها جامعة ، لا يخرج عن كونه " يافطة " أو " شعاراً " لا فائدة منه ، إلا التأثير النفسى على المنتسبين إليها ، إذ يعتقدون أنهم متساوون مع المنتسبين للجامعات الأخرى ، فى المنهج ، وفى أسلوب التفكير الأكاديمى ، وأيضاً فى المعاملات المالية من رواتب ، ومكافآت واستحقاقات .

ويرى فريق آخر : أن الجامعة الإسلامية – على الرغم من أنها تحمل الاسم الحديث – ينبغى أن تعنى بتدريس المواد الدينية فقط ، أو ما يتعلق بها من قريب أوبعيد ، كعلوم التربية والاجتماع .. و...و....الخ ؛ وما عدا ذلك ، فلا يجوز أن تتضمنه خطط الدراسة ، وخاصة إذا كانت له صلة بعقائد الشعوب الأخرى ، لأن فى تدريسها خطر على عقيدة الطالب .

فهل يكون تدريس الأديان خطرًا يجب اتقاؤه ؟ وما مدى هذه الخطورة ؟ ومن أى نوع هى ؟

لن أجيب على هذه الأسئلة بادئ ذى بدء بالإيجاب أو النفى ، وإنما سأعرض على القارئ بعض الجوانب التى ستوحى له بالإجابة :

١ – العقل :

إن قضية العقل هى قضية الإنسان ، فأينما وجد الإنسان ، وحيثما وجد ، ظهر أثر العقل واضحاً ، ولذا عرف علماء المنطق الإنسان : بأنه حيوان ناطق . وليس مرادهم بالناطق ، أنه يصدر أصواتاً خالية من

المضمون الفكرى ، الدالة على وجود عقل – أياً كانت درجة تطوره – ؛ وإلا دخل فى الحد حيوانات أخرى ، تصدر أصواتاً ، ذات دلالة حسية مفهومة بين بنى جنسها . فمقصود علماء المنطق بهذا التعبير ، أن هذا الكائن الحى – وهو الإنسان – تَفَوَّق على كل الكائنات الحية الأخرى بعقله الكامل ، الذى مكنه من التلفظ بألفاظ ، ذات دلالة على أنه ذو قوة مفكرة ، أى أن الإنسان : حيوان مفكر ، وما الكلام إلا تعبير عما لديه من أفكار ، كما قال الشاعر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالتفكير هو إحدى النواحى ، التى ميزت الإنسان عن الحيوان ؛ إذ منحه الله له تكريماً وتفضيلاً على سائر الكائنات الحية ، ولا يعادله تكريم على الإطلاق ، فليس هناك من الخصائص الإنسانية ، ما يعادل نعمة العقل ، الذى هو أداة التفكير ، فهو مدار التكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ . [الإسراء : ٧٠]

ولذا كانت أول آية نزلت من القرآن الكريم موجهة إلى العقل ، تخاطبه ، وتحثه على التفكير فى نفسه، وفى كيفية خلقه ، وفى وظيفة العقل فى تحصيل المعلومات ، يقول تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . [الأعلى : ١-٥] ولا يمكن أن يدرك ذلك إلا كائن حى، له عقل يفكر به .

فالعقل الذى لا يستخدم فى التعليم ، وتحصيل المعرفة ، والتفكير فى البحث عما ينفع ، هو أداة معطلة ، مثل الآلة التى لا تستعمل فى الأغراض ، التى صنعت من أجلها ؛ فالسيارة التى تقف عن السير لا قيمة لها ، فكذلك العقل ، الذى لا يفكر ، ولا يستخدم فى تحصيل المعرفة ، لا وجود له ، وقد حث القرآن الكريم فى كثير من آياته على استخدام العقل ، لأن استخدامه يقود صاحبه إلى الهداية ، وإلى معرفة الواحد القهار ، يقول تعالى :

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الكهف : ٢١٩]

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ . [الانعام : ٥٠]

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ [الروم : ٨]

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . . ﴾ [الاعراف : ١٧٦]

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . . ﴾ [يونس : ٢٤]

وقد تكررت فى القرآن الكريم كلمات مرادفة للفكر مثل :

يفقهون :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . . ﴾ [الانعام : ٩٨]

بل ذم القرآن من لم يفقه وتوعده بسوء المصير ، يقول تعالى :

﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . . . . ﴾ [النساء : ٧٨]

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا . . أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . . . ﴾ [الاعراف : ١٧٦]

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . . ﴾ [الكهف : ٨٧]

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ . [المنافقون : ٧]

ومثل :

يعقلون :

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٢]

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. [الانبياء : ٦٦ -٦٧]

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ . . . . ﴾ [العنكبوت : ٤٣]

ولو أحصينا الآيات ، التى ورد فيها ذكر الفكر ومرادفاته ، لضاقت به المساحة المخصصة لهذا البحث وفى هذا دليل على أن الفكر – المتطور – خاصية من خواص الجنس البشرى ، بل هو أهم ما يميزه عن غيره من الكائنات الحية ، فلا يمكن أن يوجد إنسان سوىّ سليم ، بدون فكر . فالفكر عصب حياة الإنسان ، وأثره واضح فى جميع مجالات الحياة الإنسانية . غير أنه يختلف من مجتمع لآخر ، فى المضمون ، والقيمة ، وفى قوة التأثير فى حياة الفرد ، وقدرته على التغيير فى النظم الاجتماعية . فتفكير الإنسان فى المجتمعات البدائية كان بسيطاً ، يكاد ينحصر – علاوة على المعتقدات الدينية – فى الصيد ، أو الرعى ، أو الزراعة ، لتحصيل ما يقتات به ، وكلما اتسعت دائرة نشاط الفكر ، كلما ازدادت معلومات الإنسان ، فازدادت ثقافته ، التى يستخدمها فى تحسين وسائل الحياة فيتقدم المجتمع .

وحرية الفكر شرط أساسى لتقدم المجتمع ، لأنها البوتقة التى تنصهر فيها الآراء المختلفة ، فتُعْزَل الأفكار الهزيلة ، والمبادئ الهدامة ، وتخرج الآراء الصحيحة صافية نقية ، تنير الطريق أمام مسيرة التقدم . ولا ينبغى تقييد هذه الحرية ، بحجة المحافظة على وحدة الأمة ، أو الحيلولة دون وقوعها فى حلبة صراع فكرى ، لأن اختلاف الآراء دليل على حيوية المجتمع ، ومقدمة حتمية لتطوره ، إذا أراد كل طرف الوصول إلى الحق ، حيثما كان .

أما التقليد ، وكذلك حمل الناس على أن يعتقدوا بقدسية رأى بشرى عن طريق كبت المعارضة ،تارة بقوة الحديد والنار ، وأخرى بالإرهاب الفكرى ، فهو نذير بانهيار المجتمع ، لأنه يقضى على البراعم الفكرية فيه ، ويوقف قلبه النابض .

وقد ذم الإسلام التقليد ، الذى يصرف الإنسان عن التفكير ، فيما يُعْرَض عليه من أفكار ، يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . ﴾ [الأنبياء : ٥١ - ٥٤]

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ . [المائدة : ٧٧] .

ويحكى القرآن الكريم مشهد عتاب بين المقلَّدين والمقلِّدين ، فيقول :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾. [سبأ : ٣١ - ٣٢]

وإذا كان الإسلام قد ذم التقليد ، فيما يتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان ، ومجال التفكير فيه محدود ؛ إذ لاينبغى أن يخرج عن الإطار ، الذى حددته العقيدة ، فمن الأولى أن يذم التقليد ، أو التحجر على القديم ، فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيوية السريعة التغير والتطور ، فهو يدفع المسلم دفعاً إلى البحث فى الظواهر الكونية المحيطة به ، سعياً وراء تحسين مستوى الحياة فى المجتمع الإسلامى ، يقول تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ . [الجمعة : ١٠]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ . [الملك : ١٥]

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . [يونس : ١٠١]

ولا يقتصر الأمر على التأمل فقط ، بل يشمل البحث أيضاً ، بدليل قوله تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ . [العنكبوت : ٢٠]

ولا يعرف الإنسان كيفية بدء الخلق ، إلا بعد أن يعرف طبيعة المخلوقات ، من أنها لا يمكن أن تكون قد خلقت عن طريق الصدفة ، بل لها خالق عليم حكيم ، ولا يتأتى هذا إلا بعد البحث والتفكير والتجربة .

فهم المسلمون الأوائل هذه الروح الإسلامية ، فقادوا حركة عقلية فى صدر الإسلام ، استهدفت شرح قضايا الإسلام من مصادره الأصلية : القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، وكان استخدامهم للفكر :

- إما تفقهاً واستنباطاً للأحكام الدينية ، التى تنظم سلوك المسلم نحو خالقه فى العبادات ، ونحو أخيه المسلم فى المعاملات ، أو معالجة أحداث جدت فى المجتمع الإسلامى ، وبالتالى لم تعرف أحكامها من قبل .
- وإما توفيقاً بين مبادئ الدين وتعاليمه من جانب ، وأفكار أجنبية دخلت الجماعة الإسلامية من جانب آخر .
- أو دفاعاً عن العقائد ، التى وردت فيه ، أو رداً لعقائد أخرى مناوئة لها ، حاولت أن تحتل منزلة فى الحياة الإسلامية العامة لسبب أو لآخر .

لم تكن هذه المحاولات موجودة على عهد رسول الله ﷺ ؛ لأن الوحى لم يكن قد انقطع بعد ، فلا مجال لرأى بشرى ما دام الوحى يجيب عل كل سؤال ، ولا فى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد كان المسلمون مشغولين آنذاك بنشر الدعوة ، وتمكن الجماعة ، والاستقرار ، وإرساء الحياة الإسلامية فيها على مبادئ القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة بالتطبيق العملى لوصايا الإسلام ، وعدم الانفكاك عن الأسلوب الذى ألزم به الرسول ﷺ نفسه فى تصرفاته . ولكنها — أى هذه المحاولات — وضحت كظاهرة عامة . يوم أن خف الإيمان ، يوم أن دخلت أساليب للحياة ، لم تكن معروفة من قبل فى المجتمع الإسلامى ، إذ عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ورفرفت راية الإسلام على مملكتى كسرى وقيصر ، دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، يحملون معهم أفكارهم ، وعقائدهم السابقة ، لأنهم لم يعيشوا قبل الإسلام فى فراغ عقلى ، فقد كان لهم تراث دينى — أياً كانت قيمته فى نظر الإسلام — وأفكار فلسفية حول طبيعة الوجود ، لا تتفق مع تعاليم الإسلام .

لم تختف هذه الأفكار الدينية والفلسفية عقب الفتح مباشرة — ولو حدث هذا لكان ذلك نقضاً لسنة التطور ، والتحول الفكرى فى المجتمعات الإنسانية — ، بل كانت وقوداً للمعارك الفكرية ، التى اشتعلت فى المجتمع الإسلامى ، وظلت متأججة شرقاً وغرباً عدة قرون ، مما دفع كثيراً من العلماء آنذاك ، إلى دراسة الفكر الأجنبى واستيعابه ، ليكونوا أكثر قدرة على الدفاع عن الإسلام ، ضد الفكر الدخيل ، إذ كلما ازدادت معرفة العالم بما عند الخصم من أفكار وحجج وبراهين ، كان دفاعه مقبولاً عقلياً ونفسياً واجتماعياً ،

فالغزالى – على سبيل المثال – لم يكن ليستطيع أن يكتب تهافت الفلاسفة – وهو كتاب له وزنه فى الأوساط الفكرية – لو لم يدرس الفلسفة دراسة فهم واستيعاب وإحاطة .

فالصراع الفكرى هو إحدى ظواهر المجتمع الإنسانى ، وعامل من عوامل تقدمه ورقيه ، لو اتجه وجهة بناءة ، ولم ينحرف إلى حافة التدمير والتخريب .

ولا يخلو منه مجتمع بشرى ، لأنه عصب وجوده ، والقلب الذى يدفع بدم الحياة فى شرايينه ، ولذا ينبغى ألا يقابل بالاستنكار ، والوعيد بكبته ، والقضاء على من يحمل رايته ، بل بمحاولة فهم آراء المخالفين، والرد عليها بهدوء ، وتبصير من خُدِع بالشعارات البراقة ، والعبارات الرنانة ، والأخذ بيدهم إلى الصراط المستقيم .

عندما واجه المسلمون التيارات الفكرية الأجنبية (وثنية ودينية : البوذي ، والبرهمى ، والزرادشتى ، والمانوى ، والمسيحى ، واليهودى ، والفلسفى الإغريقى) ، هبوا للدفاع عن العقيدة ، وعندما جدت فى المجتمع الإسلامى أحداث ، لم تكن فى عهد الرسول ﷺ ، اجتهد المسلمون فى البحث عن أحكام لها ، داخل إطار التشريع الإسلامى ، كذلك عندما اختلف المسلمون (خوارج ، وشيعة ، ومرجئة ، ومعتزلة ، وصفاتية ....الخ) ، حاول كل فريق الاستدلال على صحة رأيه من الكتاب والسنة ، وفى كل هذا استخدم العقل ، فأنتج فكراً ، وكان من نتيجة هذا ، ظهور المدارس المختلفة فى المجتمع الإسلامى ، فتكونت : المدارس الكلامية ، ومذاهب الفقه ، ومدارس الصوفية ، ومدارس الفلسفة ، ومدارس تفسير القرآن الكريم ، ومدارس الحديث وعلومه .

حقاً ! لقد كانت نهضة علمية ، لم تقتصر على العلوم الإنسانية ، بل تجاوزتها إلى كل المجالات الثقافية، التى يمكن للعقل أن يدلى بدلوه فيها ، ولولم يقم علماؤنا – طيب الله ثراهم – بهذا المجهود الضخم ، لكنا اليوم أمة ، لا ماضى لها فى مجال الإبداع البشرى ، ولست مبخساً أحداً حقه ، إذا قلت : إننا لانملك الحاضر ، بل هو فى يد من أطلق عنان الفكر ، فسيطر على تسيير دفة السياسة الدولية ، وتحكم فى مجالات كثيرة ، فى مصائر الشعوب الإسلامية ..... ولن يكون لنا مستقبل ، إلا إذا اقتفينا أثر علمائنا الأمجاد .

٢ . الثقافة :

إن من أكثر الكلمات شيوعاً فى هذا العصر ، هى :

ثقافة – حضارة – مدنية

إذ ليس من النادر ، أن تسمع كل يوم فى الأحاديث ، التى تدور بين الناس ؛ فى المكتب ، والشارع ، وفى البيت ، هذه الجمل : هو إنسان مثقف ، يعامل الناس بأسلوب حضارى ، هو على درجة كبيرة من التمدن فى الملبس والمسكن .

أتدل هذه الكلمات على معنى واحد ، فتكون مترادفة ، أم أن لكل منها معنى مستقلاً عن الأخرى ، أم أن معانيها متداخلة ؟

تطلق كلمة : " **الثقافة** " ، ويراد بها التراث الحضارى الفكرى فى جميع جوانبه النظرية والعملية ، الذى أنتجته الأمة ، وتميزت به عن غيرها ، فهو ينتسب إليها ، وهى تعرف به ، وتُقَيَّم بين الأمم على أساسه، ولذا ينبغى على أبنائها أن يتفهموا هذا التراث : وأن يبذلوا قصارى جهدهم لتنميته ، كى يصلوا به إلى المستوى الأسمى ، وأن يستمروا فى العطاء للمحافظة على المستوى الذى يليق بواقع الأمة بين شعوب العالم فى مجالات التطور الحضارى ، والنمو الفكرى .

غير أن بعض الباحثين يطلق كلمة " **الثقافة** " على الجانب الروحى والمعنوى ، وكلمة "**الحضارة**" على الجانب المادى ، لكن هذا التفريق فى الاستعمال يخالف الواقع الملموس ، لأن الحضارة المادية ، لا تنفصل عن الجانب المعنوى ، الذى يمثل التراث بقسميه : النظرى والعلمى .

وبعضهم يطلق كلمة " **المدنية** " على الجانب المادى المظهرى ، من حيث أنماط المعيشة ، التى تتصل بحياة المجتمعات ، و " **الثقافة** " على الجانب المعنوى ، الذى يقابل الجانب المادى ، ويندرج تحته كل ماله صلة بالروح ، والفكر ، والعقل من حيث أسلوب الجماعة فى حياتها الروحية ، والفكرية ، والأدبية ، ويجعلون كلمة " **الحضارة** " شاملة لكل من المعنيين : المادى ، والمعنوى : أى شاملة لكل من "**المدنية ، والثقافة** " .

وبناءً علي هذا التفسير ، تكون معانى الكلمات الثلاث " **الثقافة ، والحضارة ، والمدنية** " متداخلة ، أو باصطلاح علم المنطق : بينهما عموم وخصوص مطلق ، تجتمع كلها عند إطلاق كلمة

"**الحضارة** " ، وتنفرد " **المدنية** " بالجانب المادى المظهرى ، و " **الثقافة** " بالجانب المعنوى ، الذى يشمل كل ماله صلة بالروح ، والفكر ، والعقل .

كذلك نلاحظ أن معانيها تكاد تكون واحدة فى لغة التخاطب فى المجتمع ؛ إذ كثيراً ما يوصف الشخص ، الذى يعتنى بمظهره ، بأنه متمدن ، أو متحضر ، كما أن الرأى السائد أن (المثقف) يعتنى بحسن مظهره ، لأن كثرة اضطلاعه على ثقافة وعادات الشعوب الأخرى ، يرهف حسه ، ويوقظ فيه – غالباً – غريزة حب الجمال ، سواء كان سلوكاً أم مظهراً .

فإذا تجاوزنا عن الجانب المظهرى المادى ، وجدنا أن كلمتى " **الحضارة والثقافة** " تدلان على مجموع ما خلفته الأمة من آثار حضارية ، وفكرية ، وفنية ، وأدبية فى جميع المجالات المادية والمعنوية .

فكيف تستطيع أمة ما أن تُكوِّن هذا التراث ؟ وما هى العوامل الأساسية ، التى تتيح لها التفوق على غيرها فى هذا المجال ؟

إن أسباب قيام حضارات الأمم كثيرة ومعقدة ، إذ يؤثر فيها – بجانب عوامل أخرى – اختلاف الزمان ، وتفاوت المكان ، وخصائص الطقس السائد فى المنطقة ، وطبيعة اتصال الأمة بالحضارات الأخرى ، ونوع علاقتها بمن جاورها من الأمم والشعوب ...الخ ، ولكن هناك أسساً عامة قامت عليها جميع الحضارات الإنسانية ، وسوف تحتاج إليها أية أمة ، تريد أن تبنى حضارة .

ومن أهم هذه الأسس :

أ.الأخلاق :

ينطوى ميدان الأخلاق على تعقيدات ملحوظة ، فهى لا تقتصر على وجود وجهات نظر متعارضة عديدة ، بل إننا نجد أيضاً فئات كثيرة مختلفة ، وخطوط تقسيم متقاطعة ، ونقاط ارتكاز تبدو منعدمة الصلة بعضها ببعض ، فالمذهبان الرئيسان فى علم الأخلاق – وهما المذهب الطبيعى ، والمذهب المثالى – مختلفان فى تحديد معنى الخير والشر ، ولا يلتقيان فى تحديد مصدر الإلزام ، ولا فى طبيعته ، وليس بينهما تطابق فى أسلوب تقييم السلوك البشرى . ورغم هذا كله ، فقد استطاعت الشعوب ، حتى قبل أن تظهر المذاهب الأخلاقية فى المجال العلمى ، أن تلتزم بمبادئ أخلاقية ، مكنتها – بالإضافة إلى الأسس الأخرى – من صنع

حضارة رفعت مكانتها بين الأمم ، فكثيراً ما حدثنا التاريخ ، أن نظماً أخلاقية متعددة المناحى والاتجاهات – بعضها مصدره الوحى السماوى ، وبعضها الآخر تستقى تشريعاتها للفضائل من قوانين العقل ، أو وحى الضمير ، أو سلطان المجتمع ، أو حساب المصالح والمنافع ، أو غير ذلك – لعبت دوراً كبيراً فى بناء الحضارات ، غير أن من المسلم به . أنه كلما كان للمصدر الرئيسى للنزعة الأخلاقية سلطاناً على النفوس ، اكتسبت الفضائل الأخلاقية عمقاً فى ضمير الفرد ، واتسعت رقعتها فى المجتمع ، ورسخت فى النفوس رسوخاً، لا تهزه أزمات طارئة ، ولا تزعزعه كوارث عارضة ، مهما كان نوعها ومصدرها .

ولو تصفحنا المعايير الأخلاقية المطروحة على بساط البحث أمام علماء الأخلاق ، لوجدنا أن أشدها سلطاناً على النفوس ، هى تلك التى تقوم على عقيدة دينية ؛ لأن المؤمن يرى أن التزامه بهذه المبادئ واجب ، لأنها أوامر الله[218] ، وأداء المرء لواجبه يعنى الامتثال للإرادة الإلهية ، ونحن – المؤمنين – ملزمون بأداء الواجب على هذا النحو ، بحكم نفس طبيعة علاقتنا بالله ، إذ أننا مخلوقاته وعبيده ، ومن البدهى أن تطيع المخلوقات خالقها ، وأن يطيع العبد ربه .

وطبقاً لهذا المفهوم ، فقد غير الدين المفهوم الأساسى للأخلاق السائدة فى مجتمعات لادينية ، ذلك أن الفكرة الأساسية للأخلاق تعتمد فى هذه المجتمعات على المذهب القائل ، بأن قوام الحياة الأخلاقية ، هو طاعة القانون . غيَّر الدين هذا المفهوم ، فألبس الأخلاق ثوباً جديداً ، ألا وهو أن القانون الأخلاقى ، ليس قانوناً يكتشفه العقل البشرى ، وإنما هو قانون صادر من الوحى الإلهى ، الذى لا يكون أمامنا إلا أن نطيعه ، سواء أكان يبدو لنا – فى الظاهر – معقولاً أم غير معقول ، منطقياً أم تعسفياً ، عادلاً أم ظالماً ، فمن الواجب إطاعته لمجرد كونه تعبيراً عن الإرادة الإلهية ، لا لأنا نرى فيه وسيلة لتحقيق سعادتنا البشرية ، وبطبيعة الحال فنحن نفترض ، أنه لما كانت القوة ، التى تسهر على تنفيذ هذا القانون الإلهى ، هى ألوهية خيِّرَة ، فسوف يكون ذلك قانوناً خيِّراً ، يعبر عن حكمة عليا . كذلك لما كانت مصلحتنا – فى الدنيا والآخرة – تتوقف مباشرة ، على إطاعتنا لهذا القانون ، فمن الواضح ن المطلوب منا ، هو أداء أية واجبات يحددها ، بغض النظر عن رأينا البشرى فى هذه الأوامر .

---

[218] تنحصر أوامر الله الواجب اتباعها دون شروط فى القرآن والسنة الصحيحة ، أما فهم العالم لهذين المصدرين ، فهو من قبيل الاجتهاد ، وهو لا يلزم مجتهداً آخر به ، أما غير المجتهد فهو مخير بين آراء العلماء المختلفة ، إلا أن من المستحسن أن يلتزم برأى الجمهور .

فالمؤمن – الصادق فى إيمانه – لا يؤدى واجبه الأخلاقى ، سعياً إلى إرضاء المجتمع ، أو ابتغاء الحصول على مركز أدبى ، أو منفعة مادية ، بل ابتغاء وجه الله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾. [الإنسان : ٩] ، فهو ملتزم بالمبادئ الأخلاقية لمجرد كونها متعلقة بالتزام دينى ، بغض النظر عن أية منافع ، أو أضرار شخصية ، قد تنجم عن هذا الالتزام .

سادت المبادئ الأخلاقية الإلهية مجتمعات لم تؤمن بالتوحيد ، وسيطرت على عقول لم تؤمن بوجود الله، ويرجع ذلك إلى أمرين :

١. أن الله خلق الإنسان ، وأودع فيه حب الخير والفضيلة ، فإذا انحرف – فكرياً أو سلوكياً – فمن الممكن أن يهتدى إلى طريق الخير ، إذا وجد المناخ الذى يوقظ فيه غريزة حب الخير .

٢. إذا قامت علاقة ما – ثقافية ، أو اجتماعية – بين المؤمنين وغير المؤمنين ، فستتاح الفرصة لكلا الفريقين ، للعمل عل سيادة المبادئ الأخلاقية فى المجتمع ، إذ يتعرف المؤمن على مالدى الآخر ، فيحاول بالحسنى – امتثالا لقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. [النحل : ١٢٥] – بيان جوانبها السلبية ، فيجد غير المؤمن نفسه مضطراً ، إلى الاضطلاع على ماعند المؤمن ، وقد ينتج من هذا التبادل إيقاظ حب الفضيلة فى المجتمع ، وذلك ما تنشده الأديان .

خطت أمم كثيرة خطوات واسعة نحونا ، على الرغم من جمودنا ، وخشونتنا فى مجال الدعوة الإسلامية ، فاقتبسوا كثيراً من مبادئنا ، وألبسوها ثيابهم ، فخرجت إلهية الجوهر ، إنسانية المظهر ، ويكفى للتدليل على هذا أن تقرأ معى هذا النص ، الذى كتبه برتراند راسل : " الأخلاق كالعلم ، ينبغى أن تكون عامة ومترفعة جهد طاقة الإنسان عن تسلط الأنا والآن . وهناك قاعدة جديدة تصلح محكاً للمبادئ الأخلاقية ، وهى : " يجب ألا يحتوى أى مبدأ على اسم عَلَم ، واسم العلم – فيما أعنيه – هو كل تحديد لشيء جزئى تحديداً زمانياً ومكانياً ، فهو يشمل أسماء الأفراد من البشر ، ويشمل أيضاً أسماء الأقاليم ، والبلاد ، وفترات التاريخ ، وحينما أقول : إن المبادئ الأخلاقية يجب أن تكون على هذه الصفة ، فإنى أعنى شيئاً يزيد على مجرد الموافقة العقلية الباردة ، لأن المبدأ الأخلاقى ، إذا لم يزد عليها فلا أثر له على السلوك إلا قليلاً . إنما الذى أعنيه شيء أكثر فاعلية ، شيء من طبيعة الرغبة الفعالة ، أو الحافز الفعال ، شيء

تضرب جذوره فى الخيال الودود ، فما كان للمجتمع من تقدم ، إلا من مثل هذه المشاعر العامة ، فلو اقتصرت آمالك ورغباتك على نفسك ، أو أسرتك ، أو أمتك ، أو طبقتك ، أو أبناء ملتك ، فستجد أن كل مودتك ومشاعرك الطيبة ، تقابلها كراهات ، ومشاعر عدائية ، وهذه هى الثنائية فى مشاعر الناس ، التى تتجسم فيها الشرور الكبرى فى حياة البشر ، شرور القسوة ، والظلم ، والاضطهاد ، والحروب . فإذا كان للعالم أن يسلم من الكوارث ، التى تهدده ، فليتعلم الناس عدم الانحصار فى عواطفهم ".

فهو يدعو إلى عدم الأنانية ، أى إلى حب الغير ، والتمنى للغير ، بمثل ما يتمناه المرء لنفسه ، وهو ما جاء فى الحديث الشريف : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " [219] ، وتلمح أيضاً دعوته إلى عدم الشعور بالعداء نحو الأجناس الأخرى ، حتى لاتتجسم الشرور فتندلع الحروب ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا أصدق تعبير فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨]

فالمبادئ الأخلاقية التى تسود المجتمعات البشرية ، تخضع لآراء واتجاهات شتى ، بعضها يتفق مع ما جاء به الإسلام ، والبعض الآخر يخالفه ، وواجبنا نحن المسلمين دراستها ، حتى نرفض ما يرفض ، ونقبل ما نقبل عن بينة ، لا عن جهل ، وإلا كانت خسارتنا فادحة فى هذا المجال ! ! !

ب. العلم :

من القضايا المسلم بها أن الطفل يولد صفحة بيضاء ، لا يملك سوى الغرائز الطبيعية التى تساعده على البقاء ، والتكيف مع الظروف المحيطة به ، ثم يتدرج فى معرفة ما حوله عن طريق التقليد ، والمحاكاة فى محيط الأسرة والمجتمع ، فإذا استوى على عوده . تعددت مصادر معرفته ، وتختلف درجة الخضوع لواحد منها ، أو أكثر إلى الظروف الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد ، وهى كما ذكرها " هنترميد " فى كتابه : "الفلسفة أنواعها ومشكلاتها " أربعة :

السلطة :

يذهب بعض العلماء إلى أن المصدر النهائى للمعرفة ، هو سلطة من نوع ما ، كالدولة ، أو التراث (هناك سلطة دينية لا تخضع للبحث ، لأن الخضوع لنصوص الوحى خضوع مطلق ، لا مجال للعقل فيه)،

---

[219] البخارى : إيمان

وذلك لاعتبارات ، منها : القدم ، إذ يقال : إن أقدم مصادر المعرفة ، هو أكثرها يقيناً ، فإن أقدم نظم الحكم ، وأقدم العادات هى على الأرجح تلك التى تمثل الحقيقة والصواب . وقد شاع بين الناس أن " أقدم الطرق أفضلها " و " الذى تعرفه خير من الذى لا تعرفه ".

بُنِيَ هذا الرأى على مسلمتين ، إحداهما صحيحة ، والأخرى واضحة البطلان ، فالمسلمة المقبولة ، هى أن المذهب ، أو النظام ، كلما كان أقدم ، كان قد اجتاز الزمن أكثر من غيره ، وكان عمره ذاته دليلاً على أنه قد اجتاز هذا الاختبار بنجاح ، فلما كانت أجيال متعاقبة من الناس قد وجدته صحيحاً ، فإن احتمال أن يكون صحيحاً بالفعل أقوى من احتمال صحة مالم يمر إلا بفترة قصيرة . ومن الممكن أن تعد هذه القاعدة فرعاً من قاعدة بقاء الأصلح ... أما المسلمة الأخرى التى ترتكز عليها حجة القدم فسرعان ما يتضح لنا بطلانها ، بمجرد أن نركز اهتمامنا عليها ، فكثيراً ما يقول أنصار مذهب السلطة : إنه لما كانت السن الكبيرة أحكم من الشباب ، فمن الواجب أن نبجل آراء أجدادنا ، وكما قال " و. ب. مونتاجيو " ، فإن هذه مغالطة تتعرض لها الأذهان المحافظة بوجه خاص ، ولنقتبس هنا جزءاً من تحليله لهذا الخطأ :

" لو كان أجدادنا أحياء الآن ، لكانوا مسنين جداً ، وكانت آراؤهم بوصفها نتيجة أجيال من الخبرة، جديرة بالتبجيل حقاً . ولكن فى الوقت الذى صرح فيه أجدادنا بالآراء التى أصبحت الآن موغلة فى القدم ، والتى يطلب إلينا تبجيلها ، كانوا صغاراً فى السن مثلنا ، وكان العالم الذى يعيشون فيه أصغر بكثير من حيث خبرة النوع ، فمهما يكن قدم آرائهم ، فإنها تعبر عن طفولة الجنس البشرى ، لا عن نضجه . ومن هنا فإن قدم الرأى هو فى واقع الأمر قرينة تنقص من حقيقته ، ولا تزيدها."

العدد :

فالمعيار الثانى من نطاق السلطة بين الادعاءات المتعارضة ، هو معيار العدد ، فالرأى الذى يقبله أكبر عدد من الأشخاص هو الصحيح ، وذلك باطل من الوجهة الدينية لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١] ، وهذا أيضاً ما علمنا إياه التاريخ ، الذى يحفل بآراء للأغلبية ، ثبت بطلانها ، وأوضح مثل على ذلك هو : حقيقة أن الأرض مسطحة ، وهى حقيقة كانت فى وقت من الأوقات اعتقاداً ، يقول به الجميع ، ولا يتشكك فيه أحد .

النفوذ :

هذا المعيار ينطوى على مشكلة ضمنية ، هى رأى الخبراء ، مادام الخبير فى أى ميدان ، هو ذلك الذى اكتسب بوسيلة ما من النفوذ ما يكفى للنظر إليه على أنه سلطة ، أو حجة . ولعل هذا المعيار ، هو أقوى المعايير كلها تأثيراً ، لأن كل ذهن يتأثر بالنفوذ ، أو الهيبة ، مهما كان محصناً ضد معيارى القدم والعدد . والمشكلة العملية التى تواجهنا ، ليست هى كيفية إزالة تأثير النفوذ من تفكيرنا ، مادام ذلك يكون مستحيلاً ، وإنما هى كيفية استخدامنا له بطريقة ذكية مشروعة .

إن الخطر الأكبر فى هذا الصدد ، هو الميل الطبيعى إلى تحويل النفوذ من ميدان إلى آخر ، وعلى حين أنه لا يوجد ميدان من ميادين الشئون البشرية ، يظل بمنأى عن هذه الإغارة الفاسدة ، فإن أوضح الحالات فى أيامنا هذه ، تظهر عادة بالنسبة إلى العلوم . فسلطة الخبير العلمى بين زملائه من العلماء ، وبين عامة الجمهور ، تبلغ من الضخامة حداً ، يجعلنا كلنا نتاثر على الأرجح ، بأى رأى يبديه فى أى موضوع .

ليس هناك شخص محصن ضد تأثير النفوذ ، فكلنا تقريباً لنا مفكر معين ، يؤثر فى تفكيرنا وحياتنا ، ونميل إلى الاقتداء به ، حتى فى الأمور التافهة ، أو فى القرارات التى لا يكون للمفكر فيها مؤهلات خاصة ، قد تقدم توجيهاً نافعاً ، وقد يتركز هذا النفوذ حول مذهب معين ، أو اتجاه ، بحيث يصبح متحكماً فى تحديد التفاصيل الصغيرة للحياة اليومية .

والمشكلة هنا ليست فى كيفية التخلص من كل سلطة ، فذلك محال ، ولكن فى طريقة اختيار الأصلح دينياً ، واجتماعياً . وطريق ذلك مزيد من القراءة ، والاضطلاع غير المحدود بجنس ، أو وطن ، أو مذهب ، حتى يزداد المرء علماً ، فيكون قادراً على الحكم : وبالتالى على اختيار الأصلح .

التصوف :

يرى البعض أن أفضل مصدر للمعرفة ، هو ملكة فوق الحس ، وفوق العقل ، تُحَدَّد أحياناً بأنها : الحدس .

فما هى هذه الملكة ؟

يقولون : إنها تجربة باطنية ، يحياها المتصوف ، فيكتسب منها أهم معرفة له ، وعلى الرغم من أن كثيراً من الصوفية قد حاولوا وصف هذه التجربة ، فمن سوء الحظ أنهم يؤكدون أنها فى أساسها تجل عن

الوصف ، ويبدو أن إخفاق الجهود التى يبذلونها فى هذا الوصف ، هو دليل على رأيهم هذا . ومن أسباب ذلك أن التجربة مختلفة عن كل التجارب الأخرى ، إلى حد بعيد ، كما أن من أسبابه أنها تستحوذ تماماً على المرء عندما تحدث . وبناءً عليه فعلى الرغم من كثرة الكتابات الصوفية ، فإنا لا نعرف بالفعل إلا القليل جداً عن التجربة الرئيسة التى كانت مصدراً لهذه الكتابات . ويمكن القول بأن معظم الناس قد مروا بتجربة شبيهة بتلك التجربة التى يتحدث عنها الصوفيون ، وذلك فى اللحظات التى يتأملون فيها الطبيعة ، أو عندما يكونون إزاء أعمال فنية عظيمة ، أو عندما يستمعون إلى موسيقى معينة . وقد تحدث أيضاً لغير الصوفيين على أثر تجربة انفعالية معينة ، تتعلق بأشخاص آخرين ، كرؤية طفل ، أو محبوب نائم .

ومهما قيل فى التجربة الصوفية ، فواقعها لا يفهم إلا بطريق فردى مباشر ، وهو فى أساسه تجربة خاصة ، لا توصف ، ولا تقبل المشاركة ، فلا تعد أساساً لنقل المعرفة إلى الغير ، حتى على فرض التسليم بأنها مصدر من مصادر المعرفة لمن يمر بها .

العقل وسيلة المعرفة :

سبق الكلام على أن العقل وسيلة الفكر التى ميز الله به الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، فهو مصدر من مصادر المعرفة ، لأن الإنسان يعرف بواسطته الحقائق الأولية ، فقد أثبتت التجارب أن الذهن البشرى يستطيع بشيء من التدريب أن يصل إلى مستوى رفيع من الدقة فى استخدام الاستدلال للوصول إلى حقائق الأشياء . وهناك نماذج كثيرة استخدم فيها العقل للوصول إلى المعرفة اليقينية ، منها الدليل المشهور على وجود الله ، تصور الله ، هو تصور كائن كامل ، بل أكمل كائن نستطيع تصوره . مثل هذا الكائن ، إذا كان كاملاً إلى هذا الحد ، لا ينبغى أن يكون مفتقراً إلى صفة من صفات الكمال ، فهو إذا كان — مثلا — يفتقر إلى الوجود ، فإن الكائنات الأخرى ، التى تتصف بالوجود ، تكون أكمل منه . ومن هنا فلما كانت قوانين الفكر تقضى بألا يكون هناك سوى كائن واحد ، هو " الأكمل " فلا بد أن يكون الله موجوداً .

ومنها ما قاله " بسكال " حول ضرورة الاعتقاد فى وجود الله : " نستطيع أن نقول : إما أن يكون الله موجوداً ، وإما ألا يكون ، ولكن إلى أى جانب ننحاز ! فلننظر فى الأمر : إنك لما كنت مضطراً إلى الاختيار، فإن عقلك لن يشعر بإهانة ، إذا اختار أحد الأمرين ، أو الآخر ، فتلك نقطة واضحة ، ولكن ماذا نقول عن سعادتك ؟ لنقارن المكسب والخسارة فى حالة المراهنة على أن الله موجود بالفعل . إنك إذا راهنت

على أنه موجود ، وكان موجوداً فأنت الرابح . ولو راهنت على أنه موجود ، ولم يكن موجوداً ، فلن تخسر شيئاً ، فإذا كسبت ، ربحت كل شيء ، وإذا خسرت ، لم تخسر شيئاً . فلتراهن إذن ، بلا تردد على أنه موجود بالفعل ".

كانت الوسيلة التى استعملت فى إنتاج الدليل الأول ، وفيما قاله " باسكال " هو العقل ، فهو أساس المعرفة ، وإن ساعده الوحى فيما يتعلق بما وراء الطبيعة . ولا يستطيع العقل القيام بهذه المهمة الفكرية ، إلا إذا تدرب ، ولن يتحقق تدريبه – فى عصرنا الحاضر – إلا بمطالعة ما أنتجه الفكر البشرى .

قد يقال : إننا لو تركنا مجال " الميتافيزيقا = السمعيات " – لأن الوحى قد قال فيه الكلمة الفاصلة – فإننا نجد أن العقول لم تتفق إلا على المبادئ الأولية الشاملة ، مثل : " قانون عدم التناقض " ، وما عداها فلا نجد سوى آراء متعددة ، ومذاهب متصارعة ، فكيف نعتمد على العقل كمصدر للمعرفة ؟ والحقيقة أن الخلاف هو جوهر المعرفة ، وقد عبر عن ذلك أحد أنصار المذهب العقلى ، حين وصفه بأنه النظرية القائلة : إن المعرفة تُكْتَسب بمقارنة الأفكار بأفكار أخرى .

فالمعرفة الحقة تأتى من قدح فكرتين ، أو أكثر سوياً ، وإلا جمد الفكر ، وتخلف المجتمع عن السير فى ركب الحضارة .

التجربة :

يقول " جورج ب . كونجر " : " إن الخصم المألوف للمذهب العقلى فى المعركة الدائرة بين النظريات المختلفة للمعرفة ، هو المذهب التجريبى ، القائل بأن المصدر النهائى لكل معرفة ، هو التجربة أو الإحساس . ولا يلغى المذهب أهمية العقل ، والإحساس فى الوصول إلى المعرفة ، عن طريق التجربة ؛ فالعلم يبدأ من المعطيات الحسية ، ويصوغ العقل فرضاً تفسيرياً . وبعد ذلك يستنبط بالعقل أيضاً ، تلك النتائج التى يمكن توقعها ، عندما يجرى تجربة فاصلة (يستخدم فى وضعها العقل والإدراك الحسى معاً) ، وهذه التجربة ، هى التى تؤدى إلى تأييد فرضه ، أو تنفيذه على نحوٍ قاطعٍ ، وبعد ذلك يقوم بإجراء التجربة . وهذا معناه : القيام بتحديد تجريبى لنتائج العمليات العقلية ، التى توسطت بين الملاحظة الأصلية ، وبين التجربة . وهكذا يكون لدينا فى العلم مزيج رائع من المنهجين ، العقلى والتجريبى ، فكل منهما يقوم بما هو أهل للقيام به ، ويترك المنهج الآخر ما يكون هذا الأخير أقدر عليه ".

تشترك الشعوب كلها – رغم اختلاف عقائدها وظروفها البيئية – فى الحصول على ثقافتها ، عن طريق هذه المصادر الخمسة للمعرفة ، غير أنها تتفاوت فى نسبة اعتمادها على واحد أكثر من الآخر ، وتختلف تبعاً لذلك معالم الثقافة ، ودرجة الحضارة ، ونوعيتها . غير أن الاتصال بين الحضارات المتنوعة ، يؤدى إلى تبادل الأفكار ، والخبرات ، ويدفع عجلة التطور إلى الأمام . ولولا ذلك لكان على كل أمة أن تقطع الطريق وحدها من أوله إلى آخره ، وفى ذلك إرهاق وعنت وإعاقة للتقدم الحضارى .

إذًا ، فالاتصال أمر حتمته ظروف الحياة ، وطبيعة التطور ، ولا يستطيع مجتمع ما أن يقصره على جانب دون آخر ، لأن للإنسان مشاعر وعقائد ، كما أن له إنجازات حضارية ، ولا يمكن أن يحدث الاتصال لتبادل الإنجازات المادية للحضارة ، دون أن يصحب ذلك تعبير عن المشاعر ، والعقائد ، بطريقة أو بأخرى . ولذا ينبغى أن ندرس أفكاره وعقائده ، حتى نكون على بينة من طبيعته ، إذا اضطرتنا ظروفنا الحضارية أن نقيم معه علاقة ما .

عرفت شعوب كثيرة هذه الحقيقة ، فعقدت لأبنائها قبل أن ترسلهم إلى الخارج دورات دراسية للتعرف على عقيدة ، وعادات الشعب الذى سيرسلون إليه ، حتى يمكنهم التعامل معه بأسلوب يحقق أهدافهم .

ما أحوجنا نحن المسلمين إلى أن نُدَرِّس لدعاتنا أديان وعقائد الآخرين ، حتى يؤدوا مهمتهم – فى حالة إرسالهم إلى تلك البلاد – على أكمل وجه !!!

٣ – الثروة :

لا أريد الدخول هنا فى متاهات الحديث عن مصادر الثروة ، ولا أرغب فى الكلام عن النظريات الاقتصادية فى توزيع الثروة ، بل أحب أن أشير إلى شيء معروف للجميع ، وهو ما تعبر عنه العبارة الشائعة : " المال عصب الحياة " ، وما عبر عنه الشاعر بقوله :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم * لم يبن ملك على جهل وإقلال

فالمال عنصر أساسى لاغنى عنه فى بناء الحضارات ، وقد قامت على أساسه منذ فجر التاريخ أنظمة كثيرة ، تمخضت فى العصر الحديث عن :

الرأسمالية – الاشتراكية – الشيوعية

ولكى نفهم النظام الإسلامى فى عصرنا الحاضر ينبغى أن ندرس هذه الأنظمة الأخرى ، كى نبين للعالم ولشبابنا أيضاً – لأنه واقع (أردنا أم لم نرد) تحت تأثير أجهزة دعاية هذه الأنظمة – جوانبها السلبية فى بناء علاقات إنسانية كتلك التى يتمتع بها النظام الإسلامى ، وتحتم علينا دراستنا لهذه الأنظمة ، بيان الجوانب العقدية ، التى بنيت عليها ، وهذا يقودنا إلى ضرورة دراسة الأديان والعقائد الأخرى التى تدين بها تلك الشعوب التى اختارت هذا النظام أو ذاك .

٤ – الماضى :

إن دراسة التاريخ – باستثناء دراسة تتابع الأسر الحاكمة – هى لون حديث من ألوان الفكر البشرى، دُفِع إليه الإنسان ، عندما تبين له أن معرفة الحوادث الماضية قوة دافعة تدفعه إلى الأمام ، فهو يهتدى بالماضى ، ليعيش الحاضر ، ويبنى المستقبل .

فإذا بحثنا مشكلتنا داخل هذا الإطار ، فهل نجد بين طيات تاريخنا أن المسلمين درسوا الأديان الأخرى؟

ينبئنا التاريخ أن المسلمين بدؤوا فى دراسة الملل والنحل المختلفة فى وقت مبكر جداً ؛ إذ ظهرت أول دراسة لهذه الملل فى المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، فقد ترجم أحمد بن عبدالله بن سلام التوراة والإنجيل للخليفة هارون الرشيد ، كما ذكر اليعقوبى المتوفى بعد سنة ٢٩٢هـ فى تاريخه ، بيانات عن الأناجيل الأربعة ، واستشهادات دقيقة منها ، تدل على اضطلاعه عليها . وأورد المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ فى " مروج الذهب " لمعاً عن أخبار الملوك المتنصرة ، ذكر فيها المجامع لدينية . وفى موضع آخر من الكتاب (جـ ١ صـ ١٧٠) ، فى سياق حديثه عن النحل المختلفة ، أحال المسعودى القارئ على كتابه " أصول الديانات " . وذكر ابن النديم فى الفهرست مقالات عن المذاهب والاعتقادات فيما يزيد عن ستين صفحة .

ومن الكتب التى ألفها علماء مسلمون فى الأديان الأخرى :

- " الرد على النصارى " للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ
- " مقالات غير الإسلاميين " لأبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤هـ (ومن كتبه المفقودة كتاب : " الفصول " الذى وصفه ابن عساكر بأنه يشتمل على اثنى عشر كتاباً ، رد فيه

الأشعرى على البراهمة ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس . كما ألف كتاباً آخر ، فيه بيان مذاهب النصارى ، وكتاباً ثالثاً ، يحتج فيه عليهم من سائر الكتب)

- " أصول الديانات " للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ
- " تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة " للبيرونى المتوفى سنة ٤٤٨هـ
- " الفصل فى الملل والنحل لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ
- " الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل " للإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ
- " الملل والنحل " للشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨هـ
- " مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان " لأبى عَبيدة الخزرجى المتوفى سنة ٥٨٢هـ (حققنا هذا الكتاب ونشرناه تحت عنوان : " بين الإسلام والمسيحية "
- " اعتقادات المسلمين والمشركين " للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ

٥ـ الحاضـــر :

يقف العالم الإسلامى اليوم على مفترق الطرق ، تتنازعه تيارات واتجاهات متعددة ، أصابت شبابه بحيرة فكرية ، فهو يتساءل :

أيلبى نداء الماركسية ، الداعية إلى الحرية ، ومحاربة الاستعمار ، وبالمساواة بين الطبقات والمبشرة بغد أفضل ؟ ....لا .....لا....، فواقعها يكذب ماتقول ، فقد انهارت بسبب انعدام الحرية فى المناطق التى كانت تسيطر عليها ، إذ لم تتخل عن أساليب الاستعمار مع الشعوب التى وقعت فى دائرة نفوذها ، وفضلاً عن ذلك ، فقد تمركزت مميزات الطبقات كلها فى طبقة واحدة ، ألا وهى طبقة زعماء الحزب الحاكم ، فقد كانوا يعيشون عيشة قياصرة القرون الوسطى ، بينما الشعب كان يقاسى من آلام الحرمان والجوع ، وفوق هذا كله فقد كانت – ولاتزال أفكارها – قائمة على الإلحاد ، وتلك هى الطامة الكبرى !!!

أم يسير فى فلك الرأسمالية ، ليتمتع بما تملك من إنجازات حضارية ، فهى تقدم وسائل الراحة فى جميع أنشطة الحياة ، وفضلاً عن ذلك ، فهى تدعو – كما تصور ذلك وسائل إعلامها والداعين إليها فى البلاد الإسلامية – إلى الديموقراطية ، وتحترم – بل تقدس – حياة الفرد ؟ .....لا .....لا... فماضيها المؤلم مع الشعوب الإسلامية لازال ماثلاً فى الأذهان ، وهى لم تتخل عن محاولة السيطرة على الشعوب – وإن تغير

الأسلوب القديم – التى تسير فى فلكها ، أو التى تحيد عن طاعتها – كما هو ماثل أمامنا اليوم فى أفغانستان والعراق – ، فلن تسمح يوماً – إن استطاعت – بأن يعود الإسلام ويقوى فى أى بقعة من بقاع العالم !!!

أم يطبق النظام الإسلامى ، فهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد أثبتت التجارب صلاحيته ، فحين طُبِّق فى الماضى ، كانت الحرية حقاً لكل الناس ، والحياة الكريمة مكفولة للجميع، والناس فى المجتمع سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟ ولكن صورة الماضى القريب ، وما يسمعه من بعض المتحدثين باسم الدين ، يثبط همته ، ويوهن عزيمته ، فيفتر حماسه ، وتهدأ ثورته ، ويبدو وكأنه قد صب عليه ماء بارد ، ذلك أنه قرأ فى تاريخ العالم الإسلامى فى القرون المتأخرة ، أن أصواتاً نادت آنذاك ، ومعظمها من المتحدثين باسم الإسلام ، بعدم الاتصال بأوربا ، التى كانت تبنى نهضتها فى ذلك الوقت ..... فانقطعت الاتصالات ، وانعدم الاهتمام بسبل الحياة فى العالم الخارجى ، وصار تتبع الأحداث العالمية لاوجود له ، فلا يعرف شيء عن مدى التقدم ، الذى تحرزه المجموعات البشرية الأخرى فى عالم الحضارة ، ولا تُسْمَع أخبار الاكتشافات العلمية ...إلى أن جاء الوقت ، الذى اضطر فيه العالم الإسلامى، إلى فتح أبوابه على العالم الخارجى ، فوجد نفسه متخلفاً قروناً طويلة ، ولم يستطع الوقوف أمام تيارات التقدم الهائل ، فقد أظهرت حملة نابليون " أن الصراع بين الشرق والغرب ، يدار بأسلحة غير متساوية ، فالمعركة بين طرفين غير متكافئين ، لأن تقدم البلاد الغربية منحها تفوقاً حضارياً ، ومكنها من أن تكون سيدة المعركة ، ولم يستطع العالم الإسلامى الصمود أمام هذا التفوق الحضارى ، لأنه عاش منطوياً على نفسه حقبة طويلة ، أضعفته , وأنهكته ، بحيث سقط أمام الزحف الغربى سياسياً واقتصادياً .

ويبدو أن الزمن قد وقف بالشرق قروناً طويلة ، فظل ثابتاً مجمداً ، لم يطرأ عليه جديد ، وبدا وكأنه لم ير هذه القرون ، ولم يعشها ، ولم يكن لما طرأ عليه من تغيير داخلى – فى نوع الحكم وتعدد الحكام – أى تأثير إطلاقاً ، وبالتالى لم يكن له أى نوع من التطور السياسى والاقتصادى ".

فإذا تلاشت هذه الصورة التاريخية من ذهن الشباب ، وأقبل على الإسلام محاولاً تطبيق تعاليمه فى مجالات الحياة المتعددة ، اعترضته عقبات ؛ إذ لم يقم المتخصصون بصياغة تعاليمه بأسلوب عصرى ، وبعضهم لم يفهم متطلبات العصر ، فأفتى بتحريم أشياء لاصلة لها بالدين ، بل هى تدخل فى إطار ما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله : " أنتم أعلم بشئون دنياكم " ، وتصدى لتيارات فكرية حديثة ، دون أن يعرف عنها إلا النذر اليسير – وأحياناً لايعرف عنها إلا الاسم فقط – فجاء حديثه عنها مثاراً للسخرية والاستهزاء .

ماذا تقدم الجامعة لهذا الشباب الحائر ؟ أتفرض عليه النظام الإسلامى ، دون أن تبين مزاياه ، وتوضح الجوانب السلبية فى النظم الفكرية الأخرى ؟

قد يقبله بدافع العقيدة ، ولكنه سيظل مُعَرَّضاً للإصابة بأى تيار فكرى آخر – لأن الجامعة لم تسهم فى بناء فكره على أساس سليم – ويومها لن يستطيع الخلاص إلا إذا سمع الداعية القادر على إقناعه بأن المذاهب الفكرية الحديثة ، لاتخلو من جوانب سلبية ، قد تكون خطراً على المجتمع ، ولا يمكن أن يقوم أى داعية بهذه المهمة ، إلا إذا درس تلك المذاهب دراسة وافية ، فعرف جذورها العقدية ، واتجاهاتها المادية والروحية .

٦ – المستقبل :

سوف يتحدد مستقبل الدعوة الإسلامية ، على ضوء مقدار فهم الدعاة لمتطلبات العصر ، فإدراكهم لعقلية الشباب عامل مهم جداً فى تأدية واجب الدعوة ، ودراستهم للتيارات الفكرية المعاصرة عنصر أساسى فى نجاح مهمتهم ، ومعرفتهم للأديان الأخرى أمر حتمى ، فهم فى حاجة إلى ذلك ، سواء قاموا بالدعوة داخل المجتمعات الإسلامية ، أو فى خارجها ، لأن انتشار الأفكار ، لاتحده اليوم حدود جغرافية ، فوسائل الإعلام المرئية والمسموعة تقتحم كل بيت ، كما أن للشباب – وخاصة المثقفين منهم – وسائل أخرى متعددة فى الاضطلاع على ثقافة ومعتقدات الآخرين . فإذا لم يكن الداعية على علم بها ، لا يستطيع التفاهم معهم . كذلك لا يمكنه القيام بمهمته خارج المجتمع الإسلامى على أكمل وجه ، إذا لم يعرف عقيدة من يخاطبهم .